الهروب إلى الأمام

ماري تيريز كرياكي

الكتاب : الهروب إلى الأمام (قصص)
المؤلف : ماري تيريز كرياكي
الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠٢٢
رقم الإيداع : ٢٩١٧٢ / ٢٠٢٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 – 977 –493– 812 – 2

الناشر
شمس للنشر و الإعلام
ت / فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : الفنان/ دينو أحمد علي



الهروب إلى الأمام

قصص

ماري تيريز كرياكي



إهداء

طوبى للحزانى لأنهم يتعزون

و...

للإنسان السوري البسيط

لتحمله ما لا طاقة له من عذابات

نسيه العالم وبقي في قلوبنا

ماري تيريز كرياكي

.

الخروج من الجسد

تجمَّعنا في الساحة القريبة من المخيم بأعداد كبيرة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، بانتظار سيارة الإغاثة المُحَمَّلة بالحِصص الغذائية التي ستوزَّع على اللاجئين؛ وأنا واحدة منهم.

الطقس حار والازدحام على أشده، والمنظِّمون يدعوننا للاصطفاف في هدوء... وضعتُ طفلي على الأرض بمحاذاة جدارٍ عالٍ يحجب الشمس عنه ويحميه من تدافُع الناس.

اعترتني حالة من الضيق ولم أعد أستطيع التنفس إلا بالكاد، ضيقٌ أطبق على صدري من تلك النظرات التي تلاحقني... تساءلتُ أين رأيت هذه النظرات التي تبرز وسط الظلام وتأتي من المجهول؛ من مكانٍ بعيد، من نفقٍ تمايل وتعرَّج كجسد أفعى سوداء تتلوى وتتمسح بكل ما يحيط بها.

نعم تذكرت الآن، فقد رأيتها في مراحل كثيرة من حياتي... تلاحقني وتلسعني بنارها وكأنها أيادٍ تلامس انحناءات جسدي. ولطالما كانت تسعى لنزع ملابسي لتكشف المستور؛ مخترقة جسدي لتصل إلى عظامي.

رأيت هذه النظرات أيضًا عندما بدأتْ ملامح الأنوثة تظهر على جسدي الصغير الذي بدأ يتكور ويتفتح الجمال فيه... رأيتها متجلية في أعين رجال الحارة؛ وهي تخترق ملابسي لترى براعم الورد المخبَّأة تحتها... ومن ثم رأيتها في بعض أعين رجال العائلة، ولمساتهم غير البريئة بحجة اللعب معي... وبعدها في أعين زملائي في الجامعة... ثم رأيتها في أعين رفاقي في العمل... حتى أصبحت حياتي منذ لحظة استيقاظي وخروجي من باب المنزل كل صباح حالة كفاح ضد هذه النظرات بدءًا من الجيران إلى سائقي الباصات وراكبيها إلى من أصادفهم في العمل.

نظرات تفيض بالرغبة؛ بالشهوة؛ بكل ما هو محرَّم... نظرات مخيفة تكاد تحرق من تقع عليه... نظرات لطالما أحسستُ أنها تنتقص من إنسانيتي ومن كرامتي... نظرات تلغي روحي وتركِّز على جسدي، وتحوِّلني إلى شيء مادي لا روح فيه.

اقتربتْ نظرات هذه الأعين أكثر فأكثر، وأحسستُ بحرارة الجسم الذي يحملها، لم أستطع لمس صاحب الجسد لكنني شممتُ رائحته المعشَّقة برائحة الجنس...

ثوانٍ ولامَسَني في رقبتي ووجهي وانحناءات جسدي، إلى أن وصل إلى أماكن حساسة منه، ولم يبق إلا أن يدخل القطار إلى المحطة...

كل ذلك ونحن نقف في طابور انتظار المعونات المخصصة للاجئين.

باءت كل محاولاتي لإبعاد صاحب النظرات عني بالفشل، ومما زاد من صعوبة الموقف عدم استطاعتي التململ أو الامتعاض أو حتى إصدار أي صوت، فالصوت يمكن أن يؤدي إلى جريمة، وساعتها الكل سيستشرف ويدلي بدلوه، رغم أن معظم الموجودين يتمنون من أعماقهم لو كانوا هم أنفسهم مكان صاحب تلك العيون، إضافة إلى أن الجميع أعصابهم متوترة ولا مجال للضغط عليها، وكل خطأ يُرتكب عقابه الموت... بمعنى أنَّ ما حصل ينطبق عليه المثل السوري عندنا: «فوق الموت... عصت قبر».

ربي؛ ضاق بي الحال، ولا يسعني فعل شيء... سيارة المعونة التي طال انتظارنا لها لا تأتي كل يوم، وأطفالي جياع ينتظرون قدومي، ويحلمون بالطعام الذي سآتي به، فقد مضى أكثر من شهر ونحن نأكل الخبز والشاي، حتى الأعشاب التي كنت أنتقيها من العراء نفدت، ونحل الأطفال وكبرت بطونهم وجحظت عيونهم.

أمَّا زوجي الذي كان قد أُصيب بلغم أرضي فهو يجلس في ركن الخيمة؛ هذه الخيمة التي بالكاد حصلنا عليها بعد أن دفعنا فيها أخر ما نملك... خسر ساقيْهِ وما زالت جروحه تؤلمه، ولكنه صابر يعض على يديه عند قدوم نوبة الألم؛

ألم لا يمكن أن يُطاق، وتذهب روحي معه، وقلبي الصغير لم يعد يحتمل.

معاناة زوجي وآلامه لم تشفع لي أمام هذه النظرات؛ التي بدأ أصحابها بالتمادي لفظًا وتلميحًا، وأحيانًا بمحاصرتي في زاويةٍ ما... يسألون كيف حالي، وكيف لي تحمل وضعي الصعب مع زوجي المصاب والعاجز عن القيام بأعبائه الزوجية والمادية.

لم تنتهِ ملاحقتهم لي خارج الخيمة، وإنما امتدت إلى خيمة اللجوء نفسها، إذ كانوا يأتون لزيارتنا بحجة الاطمئنان على زوجي، وتبلغ بهم الوقاحة التلصلص عليَّ بنظرات أعينهم الشرهة والوقحة... يدَّعون صداقة المسكين ويبدون تعاطفهم مع ما يمر به من أزمة، ويجلسون لساعات طويلة يتسامرون، وأُحرَم أنا خلالها من أخذ راحتي في الخيمة التي لا يتعدى حجمها أربعة أمتار مربعة.

أخيرًا وصلتْ سيارة المعونة، بعد أن كاد اليأس يتسرب إلى قلبي، وبدأ عاملو الإغاثة بتوزيع أكياسها... ازداد التزاحم، وكذلك زاد التصاق هذا الجسد بجسدي... لا يمكن لي ترك الطابور، كما لا يمكن لي طلب المساعدة لكي أتخلص من هذه العلقة التي التصقتْ بي وأحسستُ بها تتحرك ملامسة كل جزء من ظهري نزولاً إلى قدميّ...

أردتُ التقيؤ، وحاولتُ قصارى جهدي تحمل ما يدور حولي، إذ لا يمكنني العودة إلى الخيمة خالية الوفاض. ولن أتمكن ساعتها من تحمل خيبة أمل أطفالي وحسرتهم وحرمانهم من وجبة ساخنة بعد أشهر طويلة من أكل الفضلات.

وبعد جهد كبير وزمن لا بأس به؛ حصلتُ على حصتي الغذائية... أخذتُها وانتفضتُ من مكاني وهربتُ مناديةً على طفلي الصغير؛ آخِر العنقود، الذي كان ينتظرني على مقربة من طابور الإعانات حيث تركته، فركض وعانقني... أخذته واتجهنا إلى خيمتنا، وكأنها الملجأ الأخير لنا.

ولطالما تساءلت ما الذي يمكنني فعله بعد لحماية جسدي وكرامتي وكبريائي...!

حجاب! وقد وضعته...

جلباب! ولبسته...

زينة! ولم أعد أتزين...

عطر! ولم أعد أتعطر...

لم أرَ وجهي في المرآة منذ زمن طويل...

ومع ذلك ما زلتُ أرى تلك النظرات تحوم حولي... أيعقل أن لا ترى هذه النظرات غير جسدي؟... وكيف لها أن تراه وهو المغطى من الأعلى إلى الأسفل بأقمشة تعوق رؤية تضاريسه؟.

بقي في خلدي أسئلة كثيرة لم أجد لها إجابة:

أليس لأصحاب هذه النظرات أمهات أو أخوات أو زوجات أو قريبات أو حتى صديقات؟!

وإن كان لديهم؛ فهل كانوا يقبلون بتعرضهن للذُّل الذي تعرضتُ له، وما زلت أتعرض؟

وهل كانوا يقبلون باستغلال حاجة النساء إلى أبسط الحقوق وهو حق الحياة بكرامة؟

أم هل هذه التصرفات تعبِّر عن جزء من ثقافتنا التي تعتبر المرأة شيئًا يمكن لأي شخص كان أن يملكه ويتحكم في مصيره؟

عاهدتُ نفسي أن لا تهزمني تلك الأعين التي تقتحم حياتي من الصباح حتى المساء. ولن أقبل أن يُفرض هذا الواقع عليَّ وعلى أسرتي.

عقدتُ العزم على أن أواجه أصحاب هذه العيون، وأدفعهم لزاوية تفرض عليهم الاعتذار.

أجلستُ طفلي على السرير الوحيد الذي لدينا، وقمتُ بإشعال النار تحت وعاء الماء لأقوم بغسل جسدي وملابسي في محاولة لمحو آثار تلك الرائحة المقيتة التي عششت فيها وأصابتني بالدوار... وبدأت أفرك جسدي كالمجانين وكأنني أريد أن أطهِّره...

وفي الحقيقة لو كان الأمر بيدي لتمنيت الخروج منه دون تردد.

● ● ● ●

حفلة عِمادة

كنتُ أطالع جريدة «النزيل» في زاوية ميتة «كما يقولون في الشام» من حارتنا الهادئة، وكان أستاذي هو من أعطاني إياها وطلب مني أن أبدي رأيي بها.

لم أكن الطالب الوحيد الذي حصل على نسخة هذه الجريدة، فقد حصل رفاقي عليها أيضًا.

كانت هذه الجريدة تتحدث بلسان حزب محظور في سورية، لذا كنا حذِرين لدى قراءتها من أن يرانا أحد المُخبرين، إذ إن أعين المخابرات المزروعة في كل مكان تتلصلص على مواطني هذه الدولة التي تعتبر كل مواطن؛ مشروع مُتَّهم، إما بالخيانة أو بالعمالة أو بالارتهان إلى جهات معادية. ويمكنك أن تجد هؤلاء المخبرين أينما ذهبت، حتى أنك قد تجدهم في خزانة ملابسك أو تحت وسادتك أو حتى في حمَّامك، ليس هناك مكان عصيّ عليهم.

حدَّدَتْ تلك الليلةُ مصيري، وكذلك مصير أصدقائي... في لحظة تم تغيير مسير حياتنا، وخرجنا من الزمان ومن المكان إلى مكان أشبه بالمطهر، ذلك المكان الذي هو ما بين

الجنة والنار.

ساقونا كالنعاج مطأطئي الرأس، مكبلي الأيدي والأرجُل، وقادونا مباشرةً إلى سجن «تدمر» الرهيب، الذي كان مجرد سماع اسمه بالنسبة للبعض منا كافيًا لكي يجعله ينهار.

في «تدمر» فهمنا أننا الآن في مكان لا عودة منه إلى حيواتنا السابقة.

دخلنا إلى السجن بخجل، واُستُقْبِلنا مباشرةً بحفلة ضرب ولَكْمٍ وتنكيل وإهانة في طريقنا إلى صالة التجمع؛ وذلك من قِبَل الحُرَّاس الذين اصطفوا ملاصقين لجدران الممر المؤدِّي إلى صالة التجمع. كنا نحاول حماية رؤوسنا لكن أيدينا المكبلة حالت دون ذلك... نتج عن حفلة الاستقبال أن أُصيب البعض منا بجروح خطيرة وكدمات، والبعض الآخر كاد أن يفقد الأعين.

انتظمنا في صفوف، وأحضر الحُرَّاس أربعة مقاعد للجلوس، وكذلك أربعة حلاقين من المساجين، وبدأتْ حلاقة الرأس على الصفر، ومع تساقُط كل خصلة على الأرض؛ سقطتْ قطعة من كرامتنا معها.

أخذوا ملابسنا وكل ما كان بحوزتنا، خمسة وعشرون شابًّا من نفس المدرسة والبعض من نفس العائلة، وكذلك البعض من نفس الحارة.

وُزِّعنا على المهاجع التي حُشِرنا فيها حشرًا مع الآخرين، بالكاد كنا نتنفس. بتنا ليلتها دون عشاء، لأننا قد وصلنا متأخرين، لم يكن هناك متسع لنا للنوم على الظهر أو على البطن، فَنِمْنا على جنوبنا بعد أن أجبرنا رئيس القاووش صارخًا بأعلى صوته: «سَيّف»؛ أي نمْ كحد السيف على جنبك... كان منظر المهجع أشبه بعلبة السردين.

عشرة أيام مرَّتْ ونحن نأكل ثلاث علقات يوميًّا، صباحًا وظُهرًا ومساءً... وفي اليوم الحادي عشر أُخذت مجموعتنا إلى غرفة المحاكمة.

دخلنا الغرفة التي تفوح منها رائحة العفونة ويجلس في صدرها شخص عرفنا أنه القاضي وإلى جانبه قاضيان آخران.

قام محامي الادعاء بقراءة أسمائنا وطلب منا الوقوف بعد ذكر الاسم... الكل مرتعد وخائف من القادم...

علا صوت القاضي القاسي قائلاً:

- أتعلمون أنكم متهمون بالانتماء إلى حزب محظور في البلاد، وأنَّ كل من ينتمي إليه عقوبته الإعدام؟

ساد الغرفة صمتٌ قاتل، وردَّد القاضي بصوتٍ عالٍ:

- الإعدام وفقًا للمادة (٥١٣٠).

حاول البعض منا الردّ أو دحض الفكرة، فأمرنا بالسكوت.

تابع القاضي:

- وعليه وعلى ما ثبت؛ نحن قاضي سجن تدمر، نحكم أولاً على المتهم «محمد علي» بعقوبة السجن لمدة ٢٠ عامًا مع الأشغال الشاقة بدلاً من عقوبة الإعدام نظرًا لأنه قاصر. أما بقية المتهمين المتواجدين في القاعة، والذين قُرئت أسماؤهم سابقًا، فأصدر الحكم عليهم بالإعدام شنقًا حتى الموت، وينفذ الحكم غدًا صباحًا في ساحة السجن وعلى مرأى من الجميع.

ودقَّ بالمطرقة على الطاولة مُعلنًا انتهاء المحاكمة.

لقد كان أهون عليَّ الموت مع الباقين من أن أبقى الوحيد ما بين أصدقائي على قيد الحياة، فالإعدام والموت معهم رحمة.

ربي، ما هذا الامتحان الذي وضعتني فيه؟ لمجرد صِغر سني حُكم عليَّ بالسجن بدلاً من الشنق؛ وكأنني خنتُ رفاقي من حيث لا أعلم!

انهار الجميع، وبدأ الصراخ والبكاء والاحتجاج، والكل غير مُصدِّق، أيعقل أن يصدر الحكم بخمس دقائق؟! وأن يتقرر إعدام ٢٤ شابًّا بجملة واحدة؟! ودون أن يحق لهم الدفاع عن أنفسهم أو حتى الاعتراض؟! أين هي العدالة؟ وماذا فعلنا لنستحق حكمًا كهذا؟! وهل قراءة جريدة محظورة كافيًا لصدور أحكام كهذه؟!

عُدنا إلى المهاجع والحزن يُخيِّم علينا، وكانت ليلة لم ينم فيها أحد من نزلاء السجن، واتفقنا فيما بيننا أن يذكُر من سيعدم اسمه بالصوت العالي لكي يقوم بقية السجناء بحفظه ومن ثم إخبار ذويه وعائلته بموته، لأن إدارة السجن لا تعطي أهالي المعتقلين أية معلومة عن مصير أبنائهم داخل السجن.

جاء الصباح، وتجمَّعنا في الساحة والدموع تنهمر على الوجوه، وبدأت عملية الإعدام. وتوالت الأصوات بأعلى استطاعتها... إيهاب عمر... ياسر محمد... أحمد الليثي...

انتهى حفل الموت بعد حوالي ساعتين ونصف، وعُدنا إلى المهاجع.

نُقلتُ إلى زنزانة أخرى مع معتقلين آخرين... أصابتني الحُمى وارتفعتْ حرارتي وبدأتُ بالهذيان، وبقيتُ طريح الفراش لأكثر من عشرة أيام بلا دواء، وبقليل من الطعام. اعتنى زملائي بي وحاولوا جهدهم لكي أسترد عافيتي، وكان أقربهم لي «غسان» الذي يكبرني بخمسة أعوام.

كان غسان شخصًا مرحًا وودودًا، قادرًا على بعث البهجة في كل من حوله، وعلى تحويل كل الأحداث المؤلمة إلى مشاهد مضحكة... أي باختصار كان مبعث الفرح والقوة فينا ودافعًا لنا لكي نستمر في متابعة حياتنا المُرَّة.

بقينا أنا وغسان متلازمين لفترة كانت كافية لأعرف عنه أشياء كثيرة، وكذلك ليعرف هو عني أشياء كثيرة؛ عن دراستنا وأهلنا والأشياء التي نحبها وعن الأشياء المشتركة فيما بيننا. وغالبًا ما كنا نمضي ساعات طويلة في النقاش حول قضايا متعددة تهُمنا...

وفي يومٍ جاء الحارس وطلب من غسان الاستعداد؛ فهو مدعو إلى حفلة «عِمادة جلَّاد» انضم مؤخرًا إلى طاقم الحُرَّاس في السجن...

«حفلة عِمادة»!... لم أفهم المعنى! وسألت زملائي القدامى في السجن عن معنى هذه العبارة، فأجابني زميلي «أبو محمد» قائلاً:

- «حفلة التعميد» يا بُني هي في الحقيقة جلسة التعذيب التي تُنهي علاقة الحارس بكل ما هو إنساني، إذ عندما ينضم حارس جديد إلى السجن تبدأ طقوس تهيئته ليصبح قاتلاً. وهذه الطقوس تكون على مراحل وأيام، ففي اليومين الأولين يُجبَر هذا الحارس على مشاهدة عمليات تعذيب السجناء لكي يطَّلع على طُرقها وأنواعها. وفي اليومين التاليين يُعطى المتدرب السوط الذي يضرب به المساجين، وهو عبارة عن كابل الدبابة المؤلف من أسلاك حديدية مُحاطة بخيوط، وسُمكُه بحجم اليد، وهو قد يؤدي إلى جرح حامله إن لم يتعلم طريقة الضرب به، وأي حركة خاطئة قد تتسبب

بقطع أُذن حامله على سبيل المثال! ولذلك يتعلم الحارس طُرق الضرب بهذا الكابل، وذلك بالقيام بتلويحه أمامه يُمنةً ويُسرةً وإلى الأعلى والأسفل هكذا إلى أن يتمكن من استعماله في المكان الصحيح. أما اليومان الأخيران وهما أخر مراحل التعميد فيقوم فيهما السجَّان بضرب أحد السُّجناء حتى الموت... عندها يثبت تعميده ويُحتفى به لانضمامه إلى نادي القتلة.

أطبق الحزن على الجميع، وبكى الرجال وهم يودِّعون غسان الذي بقي على عادته مبتسمًا، ولكنه هذه المرة كان شارد الذهن، وما إن اقترب وعانقني حتى اِنهرتُ ولم أقْوَ على الوقوف، فقام بإسنادي، ووضَع شيئًا ما في يدي، وقال هامسًا في أُذني:

- في حال لم أعُد؛ وهو الأرجح، أرجو أن تسلِّم صليبي هذا إلى أُمي، وهي ستعرف من تِلقاء نفسها أننى قد مِتُ.

صليبي؟ لم أكن أعلم أن غسان مسيحي!... كل ما علِمتُه أنه قد هرب مراتٍ عِدة من خِدمة العَلَم، وعُوقِب عدة مراتٍ، إلى أن انتهى به الأمر لدخول سجن «تدمر الرهيب». كنتُ أظن أن هذا السجن فقط للمسلمين.

أُخِذَ غسان وبدأتْ عملية تعذيبه ونحن نسمع صوته وصراخه، وتمكن البعض منا من رؤيته عبر نافذة القاووش

الصغيرة. ساعات طوال وصراخاته تتعالى... هذه الصرخات التي زعزعت كياننا... ومع كل ضربة تناثر فيها لحمه على جدران الزنزانة؛ تناثرت روحنا معها... دعَوْنا الله أن يأخذ روحه بسرعة لكي يتخلص من آلامه.

انهار غسان، واعتقد الجلاد أنه قد أُغمي عليه، وحاول إفاقته بالركل والضرب لكن غسان لم يتحرك، قام الجلاد بدلق سطل ماء على وجهه وأيضًا لم يتحرك... ارتعد الجلاد ونادى على رئيسه الذي أتى مسرعًا ووضع يده على عنق غسان ليتحسس نبضه... قال الضابط المسؤول:

- لقد مات السجين.

وهزَّ رأسه متأثرًا.

ثم التفت إلى الجلاد وقال له:

- إذا فعلتها مرةً ثانيةً سأحلق لك شعرك، فانتبه.

كان وقع الحدث علينا عظيمًا، وهو أكبر من أن أتحمّله، فقد فارق صديقي الحياة، وغابت البسمة معه. وبقيت أنا في هذا المطهر لسبع عشرة سنة أخرى... إلى أن أُفرج عني بعفو عام قبل انتهاء مدة حبسي بثلاث سنوات.

••••

على الحدود

ركعتْ حنان وبناتها الأربع على الأرض وقبَّلن التراب، شاكرات الله على وصولهن سالمات إلى تركيا، وعلى عبورهن الحدود ووصولهن إلى بر الأمان... أخيرًا بعد رحلة استمرت لأكثر من شهر، رأين فيها الأهوال وعانين كل المصاعب... وقفت حنان وحضنت بناتها وبكين إلى أن هدأت نفوسهن...

حنان محامية من مدينة حمص... قاومت لأكثر من ثلاث سنوات ونصف، وتشبثت بالأرض، فهي لم تكن من اللواتي يقبلن الاستسلام... فبالرغم مما تعرضت له مع عائلتها بقيت مصرَّة على البقاء في بيتها، فهي لا تريد أن تصبح لاجئة أو نازحة... وتؤمن بأن «من ترك داره قلَّ مقداره»... ولكن مَنْ جبرك على المُر؟ قال: الأمَرّ...

من كان يصدِّق أن يحصل ما حصل في حمص، المدينة التي كانت مضرب المثل من حيث تعايش سُكانها الذين كانوا ينقسمون إلى ثلاثة أثلاث: سُنَّة وعلوية ومسيحية... تلاشت مع مجيء الكارثة التي حلَّتْ بسوريا، فقامت بتمزيق نسيجها الاجتماعي... وطفت على السطح الأحقاد، ولعب

فيها الكل لتجييش الطوائف... وأولهم النظام القائم على نظرية: «فرِّقْ تسُد»...

بدأت المظاهرات سلمية، قام بها أهل حمص بكل مكوناتهم الدينية والطائفية، شبًابا ورجالاً ونساءً، هذه المظاهرات التي ما لبثت أن تحولت إلى ما يشبه الاحتفالات، وتجلت إبداعات القائمين بها عبر إطلاق أغانٍ جديدة تتحدث عن الحرية وعن وحدة الشعب السوري، وكذلك عبر اللافتات التي تطلق شعاراتٍ خاصة بكل أسبوع، وقد تمت ترجمة هذه الشعارات إلى لغات متعددة... ومن ثم تحولت هذه المظاهرات إلى ما يشبه الأعراس.

لم يصدِّق رجال الأمن ما يحصل، وحاولوا قمع الشباب بكل ما لديهم من قوة وسلاح، ووصل بهم الأمر إلى أن قاموا بفرش الساحة الكبيرة في وسط المدينة بالزجاج المُكسَّر كي لا يستطيع المتظاهرون الاعتصام داخلها... ومن ثم بدءوا بحصار الأحياء التي انتفضت ومنعوا الغذاء والدواء والخروج والدخول منها وإليها.

تصادَفَ أن كانت حنان تقطن أحد هذه الأحياء، والتي بدأ الأمن فيها بحملات مداهمة للبيوت بحثًا عن الشباب وسوقهم إلى المعتقلات والسجون، فاُعتقل من ضمن من اُعتقل أخٌ لحنان وابنا عمها وزوجها، وأمضى الجميع شهورًا طويلة في سراديب تحت الأرض.

أُطلِق سراح زوجها بعد أن أشْرَفَ على الموت من شدة التعذيب والتجويع، وبعده أُطلِق سراح ابنيْ عمها، وبقي أخوها قيد الاعتقال ولم يُعرف مصيره لأشهر عدة.

وفي يوم جاء الخبر المشؤوم وبُلِّغت حنان بمقتل أخيها، ودُعيت لتسلم الجثة... أراد زوجها مرافقتها، لكنها رفضت؛ خوفًا عليه مما قد يصيبه، خاصةً وأن حالته الصحية لم تتحسن، وكذلك خوفًا من أن يُعتقل مرةً ثانية.

ذهبت حنان وحدها إلى فرع الأمن، وأُدخلت إلى قاعة كبيرة مليئة بالجُثث؛ منظر أثار ذعرها، إذ عليها أن تتأمل وجوه الجميع لتتمكن من التعرف على جثة أخيها... كل الوجوه كما الأجساد متورمة ومزرقة... إلى أن وجدته وتعرَّفت عليه بصعوبة؛ من الشامة التي على خده.

قامت والشيخ بتحضير الجثة للدفن، وحملتُه ودفنته بعد أن قرأ الشيخ ما يلزم بسرعة كبيرة؛ خوفًا من أن يتعرض هو أيضًا للاعتقال؛ إذ إن الأمن طلب منه الاختصار في قراءة الصلوات... كم كان الأمر صعبًا! شخصان فقط في دفن أخيها الذي كان يملأ الدنيا بحيويته وحبه للحياة... فهو لا يستحق أن يُدفن بهذه الطريقة وكأنه مجرم، وكأن أهله يريدون التخلص منه... ولم يتمكن أهله ومحبوه من قراءة الفاتحة على روحه... كل ذلك تم بسرعة وبصمت.

عادت حنان إلى المنزل وهي غير قادرة على الحركة، وبقيت يومين في الفراش... ولما صحت شدَّدتْ على بناتها بالالتزام بالمكوث في المنزل وعدم المشاركة بالمظاهرات، فخسارة العائلة كبيرة، ولكنها ستكون أكبر إن اُعتقلتْ واحدة من الفتيات.

مع الأسف خسارة الأخ لم تكن الخسارة الأخيرة، إذ أعقبها استشهاد أبناء الأعمام، واُعتقِل الزوج من جديد... حاولت حنان السؤال عنه في أقسام الفروع الأمنية، ولكنها مُنِعتْ وهُددت أيضًا بالاعتقال.

وبعد تسعة أشهر أخرى... اُستدعيتْ من قِبل الأمن لتسلم جثة زوجها...

وصلت الفرع، وبعد البحث والتدقيق طلب منها المسؤول النظر إلى الكمبيوتر لترى صورة زوجها ولتتأكد منها... وفعلاً كانت صورته وهو ميت.

طلبتْ الجثة... قال المسؤول:

– ليس هناك جثة، لقد قمنا بدفنها بمعرفتنا.

هلعت حنان... كيف لها أن تتأكد أنه قد توفي.

أجابها المسؤول:

– ألا تكفي كلمتنا، أم عندك شكٌّ فيما نقول؟ أتريدين الدخول أنتِ أيضًا لزيارتنا؟

خافت حنان، وتذكرت بناتها الأربع، وسحبت نفسها وعادت إلى بيتها مهزومة.

والغريب أنه كلما زاد قمع السُّلطة؛ صعَّد الشباب انتفاضتهم... إلى أن جاء يوم وقام الأمن باعتقال فتيات ونساء الشباب الذين انضموا إلى صفوف الثوار، وسِيقُوا كالقطيع إلى ساحة المنطقة، واغتُصبوا في وضح النهار وعلى مرأى من أُسرهن. ومن ثم تمَّ تصفيتهن بدم بارد وبكل بساطة.

قرَّرت حنان عقب هذه الحادثة الأخيرة الهرب مع بناتها... فادَّعت المرض وحصلت على تقرير من طبيب صديق يقول إنها في حاجة إلى عملية سريعة في القلب.

وتمكنت بهذه الحجة من الخروج من الحي المحاصر للنزول إلى المشفى في دمشق، ومنه رجعت إلى الساحل، وبعدها إلى الجبال الحدودية مع تركيا التي وصلتها بعد رحلة طويلة.

••••

نِسْمَة

- الله، الله، ما هذا الجمال؟!

قالها المُحقِّق وهو يـدور حول عود «نِسمة» الرقيق والمرتعش من الخوف... يرقب عينيها الجميلتين كحبات الجاد الأخضر، اللتين تدوران في فضاء المكان محاولتين استكشافه.

«نِسمة» فتاة في العشرينات، من مدينة «حلب»، اُعتقلت بينما كانت تحاول بيع لوحاتها في حديقة السبيل، وهي الآن في أحد أقبية الأمن...

ظلام دامس ونور مسلط على وسط الغرفة، ورائحة عفونة ممزوجة بالدم، إضافة إلى رائحة عرق الأشخاص المتواجدين في هذا الفضاء.

علا صوت المحقق آمرًا المجند:

- اخلع حجابها... لنرى ماذا يخبِّئ لنا!

لم يفهم المجند ما أراده الضابط ونظر ببلاهة إلى عينيه، فنهره الضابط صارخًا في وجهه مرة أخرى:

- قلتُ لك اخلع حجابها!!

مدَّ المجند يديه المرتعشتين وقام بخلع حِجاب «نسمة» بعد محاولة مقاومة يائسة منها لمنعه من ذلك؛ وهي المكبلة اليدين؛ لم تُسفر عن شيء... انسدل شعرها الأسود المتموج وغطَّى ظهرها حتى الخصر.

أطلق المحقق صفرة إعجاب طويلة وقال لها:

- أليست خسارة كبيرة أن يعمل هذا الجمال مع الإرهابيين؟ ألم تفكري بما سيحصل لك قبل أن تمدي يد المساعدة لهم في حال اعتقالك؟

ردَّت الفتاة بصوت مرعوب:

- أي إرهابيين؟ والله لا أعرف أي إرهابي.

زعق المحقق:

- وأيضًا لديكِ الجرأة على الكذب؟

وتابع:

- على فكرة، لا تفتحي فمكِ قبل أن أسألكِ...

ونقرها بإصبعه على جبينها...

- أفهمتِ؟

لم تتمكن نسمة من الإجابة، فقد توقفت الكلمات في حلقها، وجفَّ ريقها من الرعب. فقامت بهز رأسها والدموع تنهمر من عينيها.

تابع المحقق:

- ماذا كنتِ تفعلين في الحديقة العامة؟

أجابتْ:

- كنت أحاول بيع رسوماتي.

- بيع رسوماتك؟ ولصالح مَنْ كنتِ تبيعين رسوماتك؟

- لصالح الفقراء.

- قلتِ لصالح الفقراء! قصدك لصالح الإرهابيين؟

- صدِّقني للفقراء!

- لا... يبدو أن التحقيق معكِ سيطول، مادمتِ لا تتعاونين معنا. على كلٍّ لنتابع: هل كنتِ حلقة الوصل ما بين الإرهابيين؟ ممن ولمن كنت تنقلين المعلومات؟

- صدِّقني يا سيادة المحقق، أنا فقط أردتُ مساعدة الفقراء من أهالي منطقتنا ممن ليس لديهم معيل.

- تمام، أنتِ قلتِها... «ممن ليس لديهم معيل»... أي أنكِ تعنين ممن ذهب معيلهم إلى القتال ضد الدولة... أي بما معناه للذين انضموا لصفوف الإرهابيين.

- لا... لا... لم أقصد ذلك.

- لاحِظِي أن صبري قد بدأ ينفد... سأعيد السؤال: مع مَنْ كنتِ تتعاملين؟

- أحلف بالله العظيم إنني لا أفهم ما تقصد؟

المُحقق (بعصبية):

- لا... يبدو أن الكلام معكِ لا ينفع.

نادى على المجند وأمره بأن يرفعها فلقة...

بكت نسمة وحاولت استعطافه، فقام بجرها بنفسه وساعد المجند على ربطها... وبدأ الضرب على أسفل رجليها... وقال:

- سأكتفي بخمسين ضربة مبدئيا؛ لنرى إن كان فمك الجميل سينطق بما لديك.

ضربة... ضربتان... ثلاث... أربع... عشرون... ثمان وعشرون...

وتوقفت نسمة عن العد بعد أن غابت عن الوعي... ولم تصحُ إلا بعد أن رمى المجند عليها سطل ماء...

أمر المحقق المجند بإجلاسها على الكرسي، فقام المجند بذلك... فتحت نسمة عينيها ونظرت في وجه المحقق وكأنها تراه للمرة الأولى وذلك لشدة دهشتها فقد كان يأكل بشهية عظيمة؛ دجاجة مشوية كاملة، وُيصدر أصواتًا عجيبة، مُبديًا إعجابه بطعمها.

نظر المحقق إليها وقال:

- طبعًا أنت لم تأكلي منذ البارحة... ما رأيكِ بقطعة من

الصدر مثلاً!... لا... لا... من الورك أطيب...

قدَّم لها قطعة اللحم، ودعاها لتأخذها... مدَّتْ نسمة يدها مترددة لتأخذها... وقبل أن تلمسها، صرخ وقلب الطاولة على الأرض:

- ماذا تظنين نفسك فاعلة... تريدين الأكل؟

وأمسك بشعرها ورماها على الأرض...

- الأكل فقط لمن يستحقه يا عاهرة.

وبدأ برفسها ولكمها، إلى أن تعب من ضربها، وإلى أن غابت مرة ثانية عن الوعي.

استفاقت نسمة لترى نفسها في زنزانة محشورة مع نحو أربعين امرأة أخرى، جميعهن ملتفات حولها، يضعن أيديهن على كل مكان ضُربت فيه، محاولات التخفيف عنها ومواساتها... قالت أكبرهن محاولة تهدئتها:

- اصبري يا ابنتي، إن الله مع الصابرين. لا بد لهذا الكابوس أن ينتهي.

بدأت السيدات بالتعريف بأنفسهن: وداد، رزان، سميرة، أمل، ندى، ماري، نهاد...

أعطتها رزان قطعة خبز، وأعـدَّتْ لها ميساء كوبًا من الشاي، ومسحت لها هيفاء جروحها...

بدت الأمور لها وكأنها طقوس مقدسة اعتادت السيدات

على ممارستها... طقوس؛ تعرف فيها كل منهن دورها... تتهادى فيها زميلاتها وكأنهن كاهنات في معبد بعل، يدرن حولها ويقرأن التعاويذ، وتمسح كبيرتهن شعرها وهي تضمها بين ذراعيها...

فواحدة تقول:

– اللّهُمَّ إني أسألك بحق كل اسم هو لك، يحق عليك فيه إجابة الدعاء إذا دعيت به، وأسألك بحق كل ذي حق عليك، وأسألك بحقك على جميع ما هو دونك أن تحمي نسمة وتعضدها وتخفف من آلامها...

وترد الباقيات:

– آمين.

وأخرى تقول:

– أيتها العذراء الفائقة القداسة، يا أمّ الكلمة المتجسّد، يا موزعة النِّعم، وملجأ الخطأة، ألتجئ إلى عاطفتك الوالدية بإيمان حي، وأتوسل إليك منح نسمة نعمة أن تتمم مشيئة الله على الدوام. في يديك المقدستين أودع قلبها، سائلة إياك صحة النفس والجسد، وبرجاء كبير أن تسمعي صلواتي يا أمي الحبيبة... آمين.

دعسات سريعة بدأت تقترب من باب الزنزانة... لحظات من الرعب... أمسكت كل واحدة بيد الأخرى، ينتظرن على

مَنْ سيقع الطلب.

فُتِح الباب وصرخ الحارس:

- نسمة.

تشبثت نسمة بزميلتها، ولم ينتظرها الحارس لكي تتحرك، إذ قام بسحبها على الفور وجرها على الأرض، فهي لم تستطع الوقوف على قدميها المتورمتين، وأوصلها إلى غرفة المحقق...

نظر إليها المحقق وقال:

- آسف لما حلَّ بكِ، أعلم أنكِ تتألمين، لكن كما تعلمين كله رهن بمدى تجاوبكِ معي... كلما بُحتِ بالحقيقة قربت لحظة الإفراج عنك.

علقت كلمة البوح برأسها... سمعتْها مرة من حبيبها في لحظة حميمية عندما استعملها قائلاً: إن أقصى درجات الحب هي البوح.

المحقق:

- لنبدأ من جديد، مَنْ هم الأشخاص الذين كنت تعملين معهم؟

لم ترد نسمة فقد كانت شاردة في أفكارها...

خبط المحقق بيده على الطاولة وصرخ في وجه نسمة قائلاً:

- ألم تسمعي؟ سأعيد السؤال مرة ثانية: مَنْ هي الخلية التي تعملين معها؟ ما هو دوركِ فيها؟

أجابت بلهجة يائسة:

- صدِّقني يا حضرة المحقق لا أعرف عن ماذا تتكلم!

كف واحد وقع على خدها وأطاح بها أرضًا، وعلا صوت المحقق:

- لا تصعبي الأمر عليَّ وعليكِ... تكلمي...

انهارت نسمة وأجهشت بالبكاء... صرخ المحقق:

- أتعلمين ما ستتعرضين له؟ دعيني أشرح الأمر لكِ: سنبدأ مثلاً بالتشبيح، وبعده بالكهرباء، ومن ثم بقلع الأظافر، والحرق بالسجائر... وأجملها الاغتصاب؟ ما رأيك؟

انهارت نسمة ووقعت على قدميه متوسلة أن يرحمها ويرحم أهلها من المهانة...

قال المحقق:

- اختاري من أين نبدأ؟

وتابع بعد دقائق:

- حقيقةً أنا أرى أنه من المؤسف أن نشوِّه هذا الجمال... وأعتقد أن الأفضل أن نتمتع به... ما رأيكِ؟ هل أنت مستعدة للكلام واللا....؟

بكت نسمة وحلفت بكل الأيمان بأنها لا تكذب...

جُنَّ جنون المحقق ونادى على نزار... دخل نزار، وإذا به شخص بثلاثة أشخاص مجتمعين، طول بعرض، وَحْش بشكل إنسان.

قال له المحقق :

– خذ وقتك يا نزار فنزيلتنا لم تتعاون معنا.

انكمشت نسمة كالعصفور في زاوية الغُرفة. علا صراخها وهي ترى هذا الوحش يقترب منها رويدًا رويدًا وهو يبدأ بفك حزامه...

ترك المحقق الغرفة... وسط صوت توسلات نسمة وعويلها... وصل صوتها إلى رفيقاتها في الزنزانة... ساعة أو ساعتين أو ثلاثًا... توقف الزمن بالنسبة لنسمة... إلى أن وصلت إلى مرحلة الإحساس وكأنها انفصلت عن جسدها الصغير، لم تعد تتألم... وذهبت بأفكارها إلى بيتها وإلى حضن أمها... إلى إخوتها وإلى صوت أبيها الحنون.

أعادوها إلى الزنزانة كالجثة الهامدة... بكتها نساء المعبد؛ اللواتي أعدن الطقوس ذاتها، وقُمن بغسل جسدها الفتي، ومسحن آثار الاجتياح.

توالت الأيام والشهور... تعرضت نسمة خلالها لكل ما يخطر ببال إنسان من فنون التعذيب.

أخيرًا تأكدوا أنها ليس لديها ما تخفيه. وصدر العفو عنها.

ودَّعت نسمة رفيقاتها في الزنزانة واللواتي أصبحن صديقاتها، ومشت عابرة للبوابات حتى وصلت لباب السجن الكبير، وكلما قربت المسافة بينها وبين أهلها؛ زادت دقات قلبها، ولم تكن تعلم إن كان ذلك من الخوف أو من الشوق، فهي لم تستطع أن تحدِّد.

أسئلة كثيرة تدور في رأسها... يا ترى من ستلاقي خلف هذا الباب من أهلها؟ هل ستستطيع الرد على تساؤلاتهم؟ وهل سيكون باستطاعتها سرد ما تعرضت له في المعتقل؟... مليون سؤال وسؤال، وهواجس كبيرة كدَّرت فرحتها بلقاء الأهل.

فُتِح الباب، وخرجت نسمة بخطوات مترددة. ضوء النهار أعمى بصرها، واحتاجت لدقائق لترى ما حولها، ولتميز وجه والدها، أسرعت نحوه فطالعها وجهُه الحزين الذي تعمقت فيه التجاعيد، والشيب الذي غزا شعره ولم يترك نقطة سوداء فيه، وظهره الذي زاد تقوسه من الهم. رحَّب بها قائلاً:

- أهلاً، الحمد لله على السلامة...

ولم يترك لها المجال للارتماء في حضنه... ومشى بخطوات مسرعة بعد أن طالبها باللحاق به بإشارة من يده.

أسرعت الخُطى خلفه إلى محطة الباصات، متعثرة كأنها بدأت الآن بتعلم السير، وتنتابها حالة عظيمة من الخوف

ومن الترقب مما ينتظرها في الأيام المقبلة.

استقلت الباص وجلست مقابل والدها الذي تحاشى النظر إليها، كما تحاشتْ هي أيضًا النظر إليه طوال طريق العودة إلى المنزل.

استقبلتها أمها وقبَّلتها بشيء من البرود، وكذلك فعل كل من إخوتها وأخواتها... بدا المنزل غريبًا، حزينًا... لا إنارة فيه، والستائر بُدِّلت بستائر أخرى داكنة اللون... والنوافذ أغلقت... حتى لباس أسرتها غلب عليه اللون الأسود.

ساعة كاملة من الصمت؛ كأنها دهر... نطق بعدها والدها قائلاً:

– ما حلَّ بنا من مصيبة، وما لطَّخ اسمنا من عارٍ ألحقتِهِ بنا لهو أكبر من أن يتحمَّله شخص بمفرده. ولكننا سنتكاتف جميعًا لمواجهة هذا العار، وفي مواجهة المجتمع والأهل... إلى أن يتلطف الله تعالى ويُنسي المحيطين ما حلَّ بنا من مصائب... لذا لا تتوقعي أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل دخولك المعتقل. والحرية التي كنت تتمتعين بها في دخولك وخروجك انتهت... من الآن وصاعدًا لا يمكنك التحرك من المنزل إلا بصحبة أحد إخوتك وبعد طلب الإذن... أما موضوع العودة إلى الدراسة فهذا أيضًا انتهى... وأيضًا لا وجود للرسم مكان في هذا المنزل... الشيء الوحيد

الذي يمكن لك مزاولته هو المساعدة في أعمال المنزل وفي الطبخ... وهناك أمر هام آخر وهو بمثابة أمر: لا أتمنى ظهورك أمام ضيوف المنزل وأمام الجيران... وكذلك الأفضل أن لا تظهري أمامي مادمتُ موجودًا في المنزل.

ونظر إليها نظرات قاسية خالية من المشاعر وقال:

- أتمنى أن لا أردِّد كلامي مرة ثانية، وأن تكوني قد فهمتِ ما أعنيه، لا مجال للخطأ، خطأ واحد فقط من قِبلك يعرِّضكِ إلى عقاب قد لا يمكنكِ تخيُله... الآن يمكنكِ العودة إلى غرفتك.

لم تكن دموعها تنهمر على خديها، ولكنها كانت تتطاير من هول الصدمة. حاولت فتح فمها للرد أو الاعتراض، لكنها توقفت بعد إشارة من يده، ونظرة صارمة من عينيه. سحبت رجليها وجرت نفسها مبتعدة... وأثناء انسحابها حاولت النظر في عيني أمها وإخوتها، لكن الكل أشاح بنظره عنها... عدا أخاها الكبير الذي نمت نظراته عن غضب وحقد لم تفهم سببهما.

جلست باكية على طرف سريرها، وكلمات والدها ترن في أذنيها. صعبت عليها نفسها... أيعقل أنه لم يسألها عن حالها، لا هو ولا أحد آخر في العائلة... أيعقل أنها لا تعني لهم شيئًا؟ كانت تنتظر ولو سؤالاً بسيطًا كيف مرَّت الأيام

عليها... هذا إذا لم يُرد أحد سماع ما تعرضت له من آلام نفسية وجسدية. كل المهم هو كيف ننقذ شرف العائلة ونمحو ما جرى من ذاكرة الناس... من أين أتوا بهذه القسوة؟

تذكرت كلمات صديقاتها في المعتقل، بأنَّ عليها أن تكون صبورة، وأن عليها أن تعطي أسرتها بعضًا من الوقت لكي يتقبلوها من جديد بينهم...

لكن صديقاتها لم يقلن لها إنها لن تجد حضنًا دافئًا يعيد لها الطمأنينة والأمان اللذين فقدتهما... ليس هذا فقط، وإنما هناك إحساس آخر لم تفهمه ونظرة غريبة في أعين من حولها.

كانت تحلم كل ليلة وهي في سجنها بالتعاطف والحب الذي سيخفِّف من ألمها وحزنها لدى عودتها إلى منزلها، وليس ذلك فحسب فهي كانت تنتظر منهم المساعدة لتنسى الأيام القاسية التي مرَّت بها، فهي لم تكن تقصد إلا كل الخير من عملها... وربما تمادت أكثر بتوقعها أن تُشكر على إحساسها بالآلام من حولها... وهي بالنهاية المعتدَى عليها وليست الجانية.

صحَتْ نسمة في اليوم الثاني على صوت أمها التي صُعِقت عندما رأتها نائمة تحت السرير على الأرض وبملابسها التي لم تغيرها. لم تفهم الأم لماذا... ولم تستطع

نسمة شرح مخاوفها، فلقد تعودت لأشهر طويلة النوم على الأرض... في الظلام... وغرفتها كانت مريحة ومنيرة مقارنة مع زنزانتها؛ مما منعها من النوم...

طلبت منها أمها الاستعداد لمساعدتها في تنظيف المنزل، فقد ذهب كل مَنْ فيه إلى أعمالهم أو إلى مدارسهم ما عدا الأم والأخت الكبيرة التي ما زالت تستعد للذهاب إلى الجامعة...

حاولت نسمة قول شيء، إلا أن أمها لم تسمح لها متعللة بالعمل الكثير الذي ينتظرها.

استعدت نسمة وبدأت بالعمل الذي ما لبثت أن حمدت الرب عليه لأنه أبعدها عن أفكارها وعن أحزانها... ما إن انتهت من تنظيف المنزل حتى دخلت إلى المطبخ لمساعدة أمها... طوال النهار؛ وهي تعمل مع أمها دون أن تتبادلا الحديث إلا فيما يخص العمل... إلى أن حلَّ المساء وبدأ الجميع بالعودة.

قامت نسمة بمساعدة أمها في إعداد مائدة المساء، ووضعت صحونًا بعدد أشخاص المنزل... جاءت الأم لتتفقد المائدة... فامتعضت، وقامت بأخذ الصحن الزائد والذي كان من المفترض أن يكون صحن نسمة... وطلبت منها إرجاع الكرسي الذي أضافته إلى المائدة إلى مكانه بعيدًا عنها.

عندما طالعت نسمة أمها بعيونها المتسائلة... أشاحت الأم بنظرها قائلة:

– هل نسيتِ ما قاله والدك؟... لا يريد أن يراكِ أمامه مادام هو في المنزل... الأحسن أن تعودي إلى غرفتك لتأكلي فيها... واشكري الله أن والدكِ سمح لك بالعودة إلى المنزل والعيش فيه من جديد.

صُعقت نسمة... لم تصدق أذنيها... وانثالت دموعها... وعادت إلى غرفتها... وتذكرت من جديد كلام صديقاتها عن الصبر.

تكررت أعمال هذا اليوم لأيام عديدة أخرى... لم تتمكن نسمة خلالها من إجراء أي حوار مع أحد من أهل المنزل... وازدادت عزلتها.

في أحد الأيام طلب أخوها الكبير من أمها كيّ أحد قمصانه فطلبت الأم من نسمة القيام بذلك، فجُنَّ جنون الأخ وصرخ قائلاً لأمه:

– ألم أقل لكِ إنني لا أريدها أن تقترب مني، ولا أن تلمس أغراضي ولا أن تدنِّسني؟ عليها أن تحمد الله أنني لم أقتلها.

هربت نسمة إلى غرفتها وأحاسيس من الخوف والمهانة تغمرها... وأقفلت عليها باب غرفتها ولم تخرج إلا في صباح اليوم التالي لتقوم بنفس الأعمال والأعباء الملقاة عليها.

وفي أحد الصباحات بينما كانت تقوم بنفض السجاد على الشرفة رأت صديقة طفولتها وشبابها وجارتها «ميساء»

على شرفة بيتها، فقامت بتحيتها، ردَّتْ ميساء بخجل وبصوت منخفض، وفجأة جاءت أم ميساء وبدأت بالصراخ على ابنتها ودعتها إلى الدخول إلى المنزل قائلة:

- ألم أمنعك من التحدث معها، ألم أحذرك، ألم أقل لك إنها عايبة... أتريدين أن تصبحي مثلها... ووووو...

دخلت نسمة غرفة الجلوس وأغلقت باب الشرفة وهي ذاهلة... والألم يعتصر قلبها... وكلمة «عايبة» تدور في رأسها وسؤال كبير: «لماذا»؟ هل هي من اختارت أن تدخل المعتقل؟ وهل هي من سمحت لهم باستعمال العنف معها؟ وهل هي من سمحت لهم باغتصابها؟ ألا يفهم كل من حولها مدى الألم الذي تحس به، أليس من المفروض أن يعاملوها على الأقل كأي رجل خرج من المعتقل؟ ما الفرق بينها وبين أي رجل اعتقل؟ والكثير منهم تعرضوا أيضًا لما تعرضت له؛ بما فيه الاغتصاب؟

تعاقبت الأيام والليالي... والوحدة تلفُّ حياتها... كم حلمت بيد تربت على كتفها وتساعدها على متابعة الحياة... كم حلمت بأحد ما يسألها عن حالها وعما حصل معها... وكم حلمت بأحد يساعدها على شفاء الجروح التي تعاني منها... الجروح الموجودة في روحها الطاهرة والبريئة... وكانت تسأل نفسها ما خطيئتُها...

انزوت أكثر وأكثر في غرفتها... حتى أصبحت كالأشباح تتجول في المنزل ولا يراها أحد.

وفي يوم عطلة والجميع في المنزل، ونسمة كالعادة في هذا اليوم لا تخرج من غرفتها إلا في حال احتاجتها الأم لأداء خدمة ما... حتى جاء الظهر وانتهى الجميع من الغَداء وعادوا إلى غُرفهم ليرتاحوا وليأخذوا قيلولتهم... جاءت الأم لتنادي نسمة لكي تقوم بتنظيف المطبخ، وحاولت فتح باب غرفتها ولم تستطع، ودقَّت منادية عليها... ولم تجب... استغربت الأم وأعادت دق الباب ولم تلق الرد... فأسرعت منادية على الأب ليساعدها في فتح الباب...

أتى الأب غاضبًا ومتوعدًا نسمة... ولكنها لم تفتح الباب. تجمَّع أفراد العائلة أمام الباب، وطلب الأب من الأخ خلعه.

فُتِح الباب، ودخلوا إلى الغرفة، فوجدوها معلقة بمروحة السقف...

لفَّ الصمت الجميع، وحالة من الذهول على وجه الأب والإخوة... أما الأم فقد انهارت وسقطت على الأرض باكية ابنتها.

وجدوا رسالة مكتوبة بخط يدها على السرير... أخذها الأب وطلب من ابنته الكبيرة أن تقرأها فهو لا يرتدي نظارته... أخذتها الفتاة وبدأت بقراءتها:

أمي الحبيبة

أبي الحبيب

إخوتي، أخواتي الأحباء

أعلم أن ما سأقوم به محرَّم في الاديان، إذ لا يحق لأحد أخذ الروح سوى خالقها...

لكن روحي حبيسة هذا الجسد وأنا أتوق لتحريرها... وعندما ستجدون رسالتي هذه أكون قد حررتها وأعتقتها من هذه الحياة.

أنا الآن في عالم لا مكان فيه للألم وللعار وللخزي ولن يتمكن أحد ما بعد الآن من إيذائي.

وقد أرحتكم من همّي ومن نظرات الآخرين لكم... يمكنكم الآن العيش بسلام فقد مُحِي العار الذي لحق بالعائلة... ويمكنكم السير في الشارع مرفوعي الرأس...

أقول لكم بئس الثقافة التي تضحي بأبنائها في سبيل عادات وتقاليد أعاقت حياتنا ولم تترك لنا فسحة من الأمل...

لكن... أحبائي؛ أسئلة كثيرة ظلت عالقة في ذهني أتمنى أن يتسنى لكم الوقت الإجابة عليها ولو بداخل أنفسكم:

ماذا تعني كلمة أب... ألا تعني الأمان؟

ماذا تعني كلمة أم... ألا تعني الحب؟

وماذا تعني كلمة إخوة... ألا تعني السند؟

هل سألتم أنفسكم... بماذا اختلف موقفكم عن موقف الجلاد الذي أهانني؟

ألم يكن حريًّا بكم مواساتي والوقوف معي ومساعدتي على تجاوز أزمتي وأخذ حقي ممن انتهك كرامتي...

هل سألتم أنفسكم أهكذا يكون جزائي لأنني فكرت في غيري... ولأنني حاولت التخفيف من معاناة المساكين؟

أحبائي، أنا أترك لكم عالمكم هذا غير آسفة...

ورغم كل شيء ما زلتم في قلبي... وأنا أسامحكم

نسمة

••••

الهروب إلى الأمام

فُتِح باب القاووش، ودُفِعتْ إلى داخله كتلة كبيرة من اللحم، ليس لها ملامح، ولا يمكن تمييز الرقبة فيها ولا الخصر، جسم متضخم منحشر في هلاهيل من القماش تنحسر في أماكن متعددة لتكشف عن جلد هذا الجسد الذي لونه ما بين الأصفر والأزرق والبُني والأحمر.

كانت كتلة اللحم هذه لامرأة ملفوفة الأرداف دخلت متهادية بطيئة الحركة تمشي الهوينى لثقلها. شعرها منفوش وخصلاته الطويلة تغطي وجهها، وهي تترنح يمنة ويسرة وتصدر أصواتًا مرعبة تعطي انطباعًا بأن صاحبة هذه الأصوات غير متوازنة وفيها ملامح من الجنون. وكلما لمسها أحد تعالى صراخها وعويلها.

لم يستطع أحد الاقتراب منها، فهي بالإضافة إلى ذعرها من كل شيء يدور حولها؛ تفوح منها رائحة أقل ما يُقال عنها أنها كريهة، رائحة تجمع ما بين القذارة والدم، رائحة مقززة... فهي لم تعرف الحمّام لزمن طويل ويداها لم تلمسا الماء.

تهلوس بكلام غير مفهوم، وتدندن بمقاطع أغنيات متعددة... لم تهدأ طوال النهار، فقد لفَّت المهجع لعشرات

المرات، وضربت رأسها في الحائط أيضا لعشرات المرات... كل النهار... إلى أن أصابت الجميع بالإرهاق...

حاولت بعض السيدات تهدئتها، لكنها لم تستجب... وطال الأمر إلى أن فقدت بعض السيدات أعصابهن فبدأن بضربها علَّها تسكت... مما أدى إلى زيادة جنونها وصراخها.

لم أتحمل المنظر مع بعض السيدات، وقمنا بتخليصها من بين أيدي الغاضبات... وسحبناها إلى ركن القاووش... وقدَّمنا لها كأس ماء ومسحنا على شعرها ويديها وطبطبنا على كتفيها... وهدأت نوعًا ما.

وسألتها زميلة لنا عن اسمها...

أجابت: جانيت.

وتابعت هزّ جسدها كما يهز قُراء الكتاب عند دراستهم للكتاب المقدس.

تقدمت إحدانا وبدأت ترنم ترنيمة كنسية لتهدِّئ من روعها

في ظل حمايتك نلتجئ يا مريم
لا تردِّي طلبتنا عندما ندعوك
يا فخر البرايا يا خيرَ الورى
يا بحر العطايا في الدنيا جرى
يا باب السماء يا أمَّ الفدا
يا عينَ الرجاء يا نورَ الهدى

صحَتْ جانيت في اليوم التالي مرعوبة على صوت السجَّان الذي أمرنا بالنهوض وبالبدء بأعمالنا اليومية من تنظيف وترتيب وطبخ إلى ما هنالك... لكن أول ما تبادر إلى ذهننا هو أخذ جانيت إلى الحمام... احتجنا إلى أربع نساء حتى تمكنَّا من نزع ملابسها وإجبارها على الجلوس على كرسي الحمام... واستغرق تنظيفها أكثر من ساعة. أما شعرها فلم تفلح معه كل المحاولات لتنظيفه أو حتى تمشيطه، فقمنا بقصه... كانت ساعات من أصعب الساعات... وأخيرًا تمكنَّا من إلباسها قميص نوم نظيفًا وواسعًا... وعدنا بها إلى المهجع وهي فرحة، وينطبق على وصفها قول الشاعر:

مَنْ رأى مِثْلَ حُبَّتي تدْخُلُ اليومَ ثم تَدْ
تُشبِهُ البدْرَ إذْ بَدَا خُلُ أرْدَافُهَا غَدَا

أعطيناها سريرًا قُرب سريري؛ لأنها قد استلطفتني ولم تترك يدي... وبقيتُ قربها إلى أن غفت...

نامت ما يقارب عشر ساعات متواصلة... وصحَتْ على العشاء... جلبتُ صحنًا لها وأطعمتُها بنفسي... كانت نظراتها لي غريبة، ليس فيها عرفان بالجميل، لكن فيها نوع من الذكاء وكأنها تريد أن تقول لي شيئًا لم أستطع فهم معناه.

بعد أسبوع بدأت جانيت بالتحسن، وخفَّ صياحها، وكذلك خفَّت حركتها.

في صباح اليوم الثامن؛ طُلِب منا الخروج إلى باحة السجن؛ الجميع دون استثناء...

وقفنا في صفوف منتظمة، في انتظار مدير السجن الذي كان يستدعينا من وقت لآخر، لإعلامنا بأوامره الجديدة... وأطل علينا بطلته المخيفة محاطًا بحُراسه.

قال المدير:

- غدًا سيزورنا وفدٌ من منظمة الصليب الأحمر الدولي لرؤيتكن وللاطلاع على حالتكن في السجن... والمطلوب منكن جميعًا عدم التحدث مع أيٍّ من أعضاء الوفد، وسترفضن ذلك حين الطلب... وإن سُئلت إحداكن إن كان هناك سجينات سياسيات، فالجواب سيكون حتمًا: لا.

وتابع:

- طبعًا لدى دخول الوفد عليكن إبراز مدى حُبكن للبلد وللرئيس المفدى، وبحمل صوره وعلم البلاد. ومن المفضل أيضًا أن تطلقن الشعارات المؤيدة أو تنشدن أغنية وطنية... لَكُنَّ مطلق الحرية في ذلك... أمَّا الخبر الجميل الذي سأزفه لكن، فهو أننا سنقوم بتوزيع ملابس جديدة للجميع، وعليكن ارتداءها غدًا لكي تظهرن بالمظهر اللائق أمام الوفد الضيف... أرجو أن تكُنَّ على مستوى المسؤولية، فنحن لا نريد للأجانب أخذ فكرة خاطئة عن بلدنا وعن سياسته.

وأدار ظهره وغادر الساحة معلنًا انتهاء الاجتماع.

وُزِعـت الملابس والصور والأعـلام في نفس اليوم... وبدأتْ السجينات بتنظيف المهاجع وبتحضير أنفسهن، فتناوبن على الحمام إلى ما هنالك من استعدادت.

بدت جانيت سعيدة بما يجري حولها كالطفلة التي تلقت هدية...

وجاء اليوم التالي، وقبل حضور الوفد؛ أتى السجَّان ونادى على جانيت وعلى اسمي، وقال:

- الكل يبقى هنا ما عدا جانيت التي ستؤخذ إلى مكان آخر، وعلى صفاء أن ترافقها إذ إنها الوحيدة القادرة على تهدئتها.

عادت جانيت إلى حالتها الهستيرية وجنونها، مما دفع السجَّان إلى جرها عنوة إلى غرفة منسية تحت الأرض، وأمرني بالقيام بإسكاتها وإلاَّ فسيطالني العقاب.

دخلنا الغرفة وأغلق بابها... وبقينا- جانيت وأنا- وجهًا لوجه...

التفَتُّ إليها لأراها ساكتة، متوازنة. وقد توقفتْ عن الصراخ والعويل والحركة... كل شيء عاد إلى طبيعته...

دهشتُ وسألتها:

- هل أنتِ بخير؟

قالت:

- نعم...

وأضافتْ:

– أنتِ الآن متعجبة مما ترينه منِّي، أليس كذلك؟

فأجبتُ:

– الحقيقة أنا لا أصدِّق، وأتساءل: لماذا كل هذا الذي تفعلينه؟

ردَّت بصوت هادئ:

– لم يكن أمامي للخروج من جحيم المراكز الأمنية والنجاة من مرارة العذابات التي تعرضتُ لها، والتي كنت حتمًا سأموت منها في نهاية المطاف كما مات العديد من زميلاتي، إلا أن أكون مجنونة.

••••

إكليل الشوك

سأحدِّثكم اليوم بلغة حبيبتي: العربية... وليس بلُغتي الأم... وسأنقل لكم ما يفيض به قلبي من محبة لكل إخوتي في الإنسانية... ولن أقف موقف الشيطان الأخرس وأبقى شاهد زور مما يطال أبنائي وإخوتي السوريين من ظلم وقهر ووحشية ممنهجة.

كما لن أحيد عن طريق معلمي رمز الحقيقة، وشمس الحق؛ الفادي والمخلص.

ثلاثون عامًا من عمري قضيتها على طريق الجلجلة... ثلاثون عامًا من قصة عشق غمرتْ قلبي، تنساب من بين أصابعي وتأخذها رياح الشر.

يوم وصلتُ إلى مينائها؛ ملكتْ وجداني، وتماهينا معًا، وأصبحتْ هي أنا... وأنا هي... وبِتُ أرى وجهي في وجهها، ولم أعد أعرف مَنْ أنا ومن هي... وكأنني أرى نفسي في المرآة... وسالت روحي على ترابها كالماء الزلال؛ شفافًا... في حُبها.

سحرتني جبال «القلمون» الجذابة، ووجدتُ روحي في «دير مار موسى الحبشي» المتربع على بوابة الصحراء... هنا بدأ حلمي بتحقيق مشروع التصوف المشترك المسيحي الإسلامي، وكنت دائمًا أومن أن الراهب أو الراهبة جزء من المجتمع الذي يعيش فيه، وعليه أن يكون فاعلاً بتعاطيه معه، لذا بدأتُ العمل في المجال العام في منطقة انطبق عليها الانسجام بين الأرض والسماء... بين الأرض والإنسان.

ترميم الدير أخذ مني سنوات طويلة من عمري، إذ قمتُ بترميمه بيدي قطعةً قطعةً، وحجرًا حجرًا، ولم أنسَ الدير الآخر الذي يبعد حوالي نصف ساعة عن دير مار موسى الحبشي، ولا الكهوف المحيطة به، إضافة إلى المكتبة وغُرف الزُّوار والمنتزه للرياضة الروحية، وأصبح الناس يؤمونه للصلاة والتأمل ولحوار الأديان، وكان ومازال إيماني مطلقًا بأن كل إنسان يستطيع الوصول إلى الله وإلى كلمته عبر كل طريق يرتئيه؛ كقول «ابن عربي»:

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميعَ ما اعتقدُوه

وآمنت بكل ما يؤمن به الإنسان كما قال أيضًا ابن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ

أدِينُ بدِينِ الحُبِّ أنَّى توَجَّهَتْ فمرعًى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان

وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ ركائبُهُ فالحُبُّ ديني وإيماني

وجاء اليوم الذي نختبر فيه كل ما آمنا به من حرية وكرامة للإنسان، ومن حوار بين الأديان استغرقني ثلاثين عامًا من التأمل والحوار والنقاش ومن كتابة عن هذا الموضوع، هذا اليوم الذي قررتُ فيه الانحياز للإنسان السوري ولكرامته، وكنت أعرف أن طريق الحرية طريق صعب، ولن يحدث بسهولة في دولة، حاولت مرارًا أن أجد منفذًا لكسر جدار الانغلاق الذي اتبعته السلطة خوفًا على مراكزها، وأرسلتُ العديد من الرسائل إلى رأس السلطة؛ محاولاً خلق جسور ما بينه وبين شعبنا المتعطش لكل ما هو حق للإنسان في العيش الكريم... ولكن لم أفلح مع الأسف.

علا صوتي لدرجة لم تعُدْ تحتمله السلطات الأمنية، وضايقها نشاطي السلمي، فاعتُقلتُ واستُجْوبتُ... ومن ثم أُجبرتُ على ترك أمي سورية... وأنا الذي كنت أحلم بأن أحمل جنسيتها وأن تكون منتهاي وأن أُدفن فيها، وقد أوصيتُ بهذا، على أن يكون مثواي الأخير في مقبرة الرهبان تحت شجرة زيتون.

نداء المحبة جعلني أنضم إلى صفوف المعارضة جاعلاً هدفي الوطني الأساسي المصالحة الإسلامية المسيحية؛ مطبقًا ما آمنتُ به وكتبته في كتابي «الإيمان بيسوع، وحب الإسلام».

وقبل وداعي لبلدي وأهلي خطت يدي هذه الرسالة لكل أحبتي على أمل أن أعود في القريب العاجل:

«وداعًا يا أهلي في القلمون»

في الوقت الذي أغادر فيه البلد متّجهًا إلى منفى أليم - ويشهدُ اللّه عليَّ أنني كنت أفضل لو رقدتُ مع شهداء الحرية في تراب هذه الأرض المحبوبة حتى لو نزلتُ إلى جحيم المعتقل - يعزّي قلبي أن أوجّه رسالة شكر لأهل القلمون الأعزاء عبر صفحات حرة تخاطب جيل شبابنا الأحرار، وأعتذر من الجهات المختصة لعدم طلبي مسبقًا الموافقة الأمنية وإذن الطباعة... فمن نقاط خطة عنان الستة الاعتراف بحقّي في أن أمارسَ حرية الرأي والتعبير مع أنني لهذا السبب أُطرد.

مـرّت ثلاثون عامًا من العِشْرة والتعاون وحسن الجوار والصعوبات أيضًا... تذوَّقتُ هذا الأصل الحضاري العتيق والمبني على الوفاء للدين والاحترام والتقدير لدين الجار. ومع ذلك كنتُ أرى بقلق، بين سنابل القمح الغني، أن الأعشاب السامة والشائكة تنمو، تلك التي تكاد أن تخنق المجتمع ثقافيًّا ودينيًّا ومؤسساتيًّا. فأُغلِقَت المحمية البيئية ومُنعت المحاضرات والندوات الحوارية وانشلّ العمل بمختلف أبعاده إلا أن الروحَ لا تُقمع.

توقّفتْ إقامتي في شهر آذار من عام 2011 عند تفتح براعم الربيع السوري، ولم أستطع منذ ذلك الحين أن أسافر خارج البلد للقاء والديّ العجوزين.

اضطررتُ في الأشهر الماضية أن أضعَ جانبًا الحذر والخوف، لأنني كنت أرى في الآفاق اندلاع الحرب الأهلية وآلاف القتلى وتشويه زينة وطننا؛ ألا وهم شاباتنا وشبابنا الأشراف. حاولتُ، ولم أزل، أن أستبق ممارسة الديمقراطية الناضجة قبل الأوان؛ لعلها تغلب الطغيان بسلاح الحق لا الرصاص.

والآن وداعًا يا قلمون وأهله الأعزاء. في قلبي صور الوجوه الطيبة والضيافة الصافية والعقول القاسية التي لا تمشي إلا على قناعة.

إلى اللقاء يا أقربائي، المسلمين منهم والمسيحيين، فإنكم في قلبي أمة واحدة أنتمي إليها وحدها! إلى اللقاء، فاللقاء، إن شاء اللّه، قريب! نعم، إنني ذاهبٌ، وبقدر ما أبتعدُ في المدى أتعمّق بالقدر ذاته في انتمائي العربي والسوري والقلموني، فلا تتحقق الإنسانيةُ إلا في الخصوصية.

علمني المسيح أن أُسامح. فإن لم يكن اللّه هو من يسامح في قلوبنا فكيف يسعنا أن نسامح من هم إخوتنا في الإنسانية على ما لا يُحتمل من تشويهها؟ رمى اللّه في قلبي السماح، فإنني لحظةَ الفراق أطلب من جميعكم السماح على أي نقص أو خطأ صدر عني. علّمنا الأنبياء الشكر وهناك الكثير والكثير من النعم أشكره تعالى عليها طيلة هذه السنوات القلمونية الثلاثين... «ولئن شكرتم لأزيدنكم».

إيماني بالمصالحة دفعني إلى خلق منصات للحوار بين كافة الأطراف السورية، ترسيخا لثقافة التعايش والتآخي، وذهبت

يومًا في مهمة لرأب الصدع ما بين الإخوة في شمال البلاد، هذه المهمة التي كانت من الخطورة بحيث أردت الذهاب فيها وحدي دون مرافقة، وأبلغت أحبابي بأنني في حال لم أعد خلال ثلاثة أيام فيمكنهم اعتباري في عداد الأموات.

حبي لسورية كان أكبر من أن أتخيل ما أصابها من كوارث، وأكبر من أحلام الذين يودون تقطيعها وأخذ قطعة منها لكل طائفة، سورية بالنسبة لي هي هذا التمازج اللامتناهي.

لم أكن أتوقع أن الثقافة التي آمنت بها هي من ستكون وراء اختفائي ووراء خيبة أملي في عدم تقديري لحجمها، ثقافة تخلف رسمت نهايتي كقول الحلاج:

نَديمي غَيرُ مَنسوبٍ إِلى شَيءٍ مِنَ الحَيفِ
سَقاني مِثلَما شَرِب فِعلَ الضَيفِ بِالضَيفِ
فَلَمّا دارَتِ الكَأسُ دَعا بِالنَطعِ وَالسَيفِ

هل ستتسنّى لي العودة، كالغائب المنتظر، لا أحد يعلم...

سامحوني.

••••

مُهِمَّة سِرِّية

تعالت الأصوات في أرجاء ساحة المخيم، وتجمَّع اللاجئون من كل أنحائه، تتقدَّم نساء المخيم هذا التجمع وهُنَّ يحملن الطناجر التي يطرقنَّ عليها بالملاعق الكبيرة لإحداث ضجة للفت انتباه القيِّمين على إدارة المخيم.

صرخ الضابط مدير المخيم:

- ما هذا الضجيج؟ ماذا حصل؟ لماذا تقرعون على الطناجر؟

أجاب المساعد:

- إنها مظاهرة؛ على ما يبدو سيدي!

ردَّ الضابط بتعجب:

- مظاهرة! هنا في المخيم! عجيب أمر هؤلاء السوريين! كلَّما تجمع ثلاثة منهم تكون هناك مظاهرة! كأنهم قد خرجوا من القمقم، حتى النساء بدأنَّ بالتظاهر؟ ولماذا التظاهر؟ هل قصرنا في أية خدمات؟ أكل وشرب وخيمة لكل أسرة وطبابة ومدرسة وملابس... إلخ. ما هذا الجحود؟!

التفَّت النساء المتظاهرات حول الضابط المسؤول عن إدارة المخيم محتجات ومندِّدات بإدارة كهذه، وبعدم سماعها لطلباتهن.

لم يفهم الضابط المصعوق ما يدور حوله، وحاول تهدئة المحتجات ولم يفلح. فما كان منه إلا أن صرخ بصوته الجهوري طالبًا منهن السكوت، متوعدًا مرة ومهددًا مرة أخرى... إلى أن عمَّ الهدوء.

قال الضابط بعد أن سكت الحشد:

– عليكن سيداتي القيام بتشكيل لجنة منكنَّ لتقديم طلباتكن، وإن لم تفعلن ذلك فلن أصغي إليكن... يجب أن تتعلمن النظام... فالصراخ وتحدُّث الكل في آنٍ واحد لن يفيدكن بشيء.

تراجعت السيدات مبتعدات عن مكتب المسؤول، وتحلقنَّ حول أكبرهن سِنًّا: «أُم محمود»، للتناقش فيما تقدَّم به الضابط...

نظرت السيدات إليها في محاولة لمعرفة الخطوة التالية التي سيقمن بها... قامت أم محمود بتهدئتهن وقالت:

– يا صديقاتي: سمعتُنَّ ما قاله المدير، علينا ألا نضيع الوقت، فلنقُم مباشرةً بتشكيل لجنة قوامها خمس أو ست سيدات، ولنتفق على ما سنطلبه منه.

وتابعت أم محمود قائلة:

- علينا أولاً انتقاء أعضاء اللجنة، فمن ترشِّح نفسها، أو من تريد ترشيح سيدة أخرى لتكون في اللجنة؛ فلتتفضل.

صمتت السيدات للحظات، ومن ثم بدأنَّ التشاور فيما بينهن... وبعد فترة من المداولات والنقاشات لانتقاء السيدات المناسبات لتكُنَّ في اللجنة، اتفقن على ترشيح «أم محمود» بالإجماع كمتحدثة رسمية باسم الجميع.

أم محمود المعروفة بهدوئها وحكمتها، هي مرجع كل من له مشكلة في المخيم، قادرة بما تتحلى به من صبر وجلد على استيعاب مَنْ حولها، تتعاطف مع مشاكلهم وتساعدهم على حلها، ولذلك فهي خير من يقوم بتمثيل المتظاهرات، خصوصًا وأنها كانت تعمل كمحامية في سورية، أي أنها على دراية بكيفية طرح المواضيع المُختلَف عليها، وكان لديها مكتب في «إدلب» قبل تعرضها لمحاولة اغتيال؛ لدفاعها عن المعتقلين والمعتقلات، وتم تهريبها من قبل أبنائها إلى تركيا حفاظًا على حياتها، ولهذا السبب فهي تستعمل اسمًا حركيًّا «أم محمود» لكي لا يتعرف عليها أحد.

ثم قامت السيدات باختيار الأكثر تعليمًا والأكثر حضورًا بينهن ليكُنَّ من اللجنة، وهنّ: «ثناء» المهندسة، و«هبة» المُعلمة، و«رزان» الصحافية، و«روان» المُزارعة، و«علياء»

الفنانة التشكيلية. واكتمل العدد.

رفضت أم محمود وبشكل مطلق أن تكون المتحدثة الوحيدة باسم المجموعة، ورأت أن على اللجنة تقاسم الأدوار والأفكار، واقترحت أن تقوم كل سيدة منهن بعرض جانب من طلباتهن بجُملة واحدة واضحة ومفيدة لتكتمل صورة المطالب بعد أن تُدلي كل منهن بدلوها، ومن ثم تتضح للضابط المسؤول مطالبهن. وأضافت أن عليهن الاستفادة من الوقت الذي سيخصصه لهن، ولذلك يجب عليهن عدم الإطالة في الحديث ليتمكَّنَّ من إقناعه والاستجابة لطلباتهن.

وأضافت أم محمود:

- كلنا نعرف ماذا نريد، إنه طلب وحيد، وهو الحصول على المواد الغذائية المخصصة للمخيم كمواد أولية وليس كوجبات غذائية كما نحصل عليها حاليًّا.

هزَّت السيدات رؤوسهن بالموافقة.

ثم أردفت أم محمود قائلة:

- هنا علينا الاتفاق على طريقة عرض طلبنا ودور كل واحدة منا في الإضافة لعرض طلبنا لنصل إلى هدفنا، وأعتقد أن علينا أن نبدأ على الشكل التالي:

• شُكر مدير المخيم والبلد المضيف على كافة الخدمات التي قُدِّمت ووفرت لنا وما زالت تُقدم.

• عرض طريقة طبخنا والبهارات التي نستخدمها في بلادنا والتي تختلف نوعًا ما عمَّا يُستخدم في المطبخ التركي.

• الثناء على كميات الطعام التي تُقدَّم لأهالي المخيم.

• شرح أن عدم استحسان الأهالي لطعم الغذاء المختلف عمَّا تعودوا عليه يدفعهم إلى رفض كميات كبيرة منه وبالتالي هدرها.

• التمني والرجاء بإعطائنا المواد الغذائية للقيام بطبخها بأنفسنا بالطريقة السورية وتوزيعها على سكان المخيم.

• والمطلب الأخير هو السماح باستعمال المطبخ وأدواته.

أثنت السيدات على مقترح أم محمود ووزَّعن الأدوار واتفقن على طريقة الكلام أمام مدير المخيم مع التأكيد على أن تكون الجُمل واضحة وقصيرة ومحددة لتصل إلى المدير.

دخلت السيدات إلى مكتب مدير المخيم ترأسُهنَّ أم محمود، وجلسن بعد أن رحَّب بهن المدير، وكما اتفقن؛ بدأتْ أم محمود وشكرت المدير على الخدمات الجليلة التي يقدِّمها لأهالي المخيم وللبلد المضيف الذي هيأ لهن ولسكان المخيم العيش بأمان وللتمتع بشروط الحياة الأولية للإنسان، وهذا ما لم يتوفر حتى في بلادنا الأم، ومن ثم قامت

بتقديم المشاركات في الوفد والتعريف بهن، مُنهية كلامها بدعوتهن لعرض المشكلة أمام المدير.

قالت ثناء:

- إن الطبخ التركي لا غبار عليه، وهو من أحسن المطابخ الشرقية، ولا يمكن لاثنين الاختلاف عليه، لكن التوابل والبهارات المستعملة تضفي نكهة خاصة على الطعام، وهي مختلفة تمامًا عما يستعمله السوريون في طعامهم.

وأضافت رزان:

- ومما لا شك فيه أيضًا أن كميات الأكل التي تُقدَّم كافية، وأحيانًا أكثر من كافية، ولا يمكننا التذمر أو حتى الادعاء أن أحدًا لم يحصل على كمية كافية من الحصة الغذائية التي يحصل عليها.

وتابعت هبة:

- وأودُّ هنا أن ألفت انتباهك سيادة المدير أن البهارات التي يستعملها السوريون مختلفة عن البهارات المستعملة في الأكل التركي مما يعطي الطعام نكهة أخرى غير التي تعوَّد عليها السوريون فيقومون بترك الصحون مليئة بما بقي فيها، وبذلك تكون نسبة هدر الأطعمة على أشدها؛ مما يؤدي إلى خسارة كبيرة معنوية ومادية.

وتفضلت علياء بالمتابعة:

- لذا بعد أن عرضنا ما سبق نتمنى من حضرتكم القبول بتقديم مواد الأكل الأولية لنا لنقوم بطبخها بأنفسنا والقيام بتوزيع الحصص المطبوخة على سكان المخيم.

واختتمت روان الحديث قائلة:

- ونحن أيضًا نتمنى منكم العمل على تأمين دخولنا إلى المطبخ، ونحن بدورنا سنقوم بتقسيم أنفسنا إلى مجموعات عمل نقدِّمها لكم على شكل قوائم نحدِّد فيها الفريق الذي يقوم على العمل أسبوعيًا، هذا وسنقوم بتنظيف الأواني المستعملة والمطبخ بحيث نعمل على الحفاظ على الصحة العامة في المخيم.

دوَّن مدير المخيم طلبات السيدات ووعدهن أن يرفعها إلى سيادة القائمقام للبت فيها ولاتخاذ القرار النهائي، وأضاف:

- إن شاء الله سآتي بالجواب النهائي خلال أسبوع.

خرجت السيدات من مكتب المدير ونظرات التساؤل في أعينهن وتعتريهن آمال كبيرة بتحقيق مطالبهن.

تحلَّقت نساء المخيم حول الوفد وسمعن ما تمَّ وما قدَّمه المدير من وعد برفع مطالبهن إلى القائمقام ووعده ببذله قصارى جهده للحصول على موافقة السلطات المعنية.

تعالت أصوات النساء بالدعاء لمدير المخيم ولله تعالى لكي ينظر لطلباتهن بعين الرحمة.

لم يمضِ أكثر من ثلاثة أيام إلا وكان المدير قد طلب من اللجنة التي قابلتْه الحضور إلى مكتبه.

دخلت السيدات مصحوبات بدعوات الجميع بالتوفيق والرجاء بأن يحملن لسكان المخيم خبرًا سعيدًا.

قال مدير المخيم بصوت هادئ:

- اِهنئن سيداتي، فقد حصل ما أردتـن، واعتبارًا من الأسبوع المقبل ستصلكن المواد الأولية وستعملن على طبخها وتوزيعها بالشكل الذي ترونه. لكن كل شيء يجب أن يكون منظمًا ومدونًا، وأنا هنا أُحمِّل السيدة أم محمود المسؤولية، وأتوقع من حضرتها أن تقدِّم لي قوائم العاملات والمواد والحاصلين على الحصص الغذائية كل أسبوع.

فرحت السيدات وشكرن المدير وانصرفن بهدوء.

جتمعت سيدات المخيم في الملعب البعيد عن مكتب المدير وبدأن بتهنئة بعضهن على نجاحهن في مساعيهن، وقالت أم محمود:

- يا صديقاتي، لكي ننجح فيما نسعى إليه علينا أن ننظِّم أنفسنا وأن نقسِّم العمل فيما بيننا، لاستلام المواد ووضعها في المخزن وللطبخ ولتوزيع الوجبات الغذائية وللتنظيف

ولتنظيم قوائم كل لجنة... هذا بالإضافة إلى مهمتنا غير المعلنة، ألا وهي نقل الطعام إلى الطرف الآخر من الحدود في سورية بشكل يومي، وهذا الطريق يتطلب اختيار من لديهن القوة البدنية لحمل الأغذية ونقلها، إذ أن المسافة بيننا وبين أقرب قرية - كما تعلمن - تزيد عن عشرة كيلومترات، إضافة إلى وجوب تحلي هؤلاء السيدات بالسرية والعزيمة والقوة. وكما يعلم الجميع فإن كل ما قمنا به هو لمساعدة شبابنا... شبابنا الذين بقوا في قُرانا للدفاع عنها، وهم يعانون من شُحِّ المواد الغذائية، حتى أن البعض منهم يأكل مرة واحدة في اليوم، هذا إن حالفه الحظ... وكما تلاحظن سيداتي؛ فإن شبابنا هزُلت أجسامهم ولم يعد باستطاعتهم متابعة طريقهم، إذ إن وجبة واحدة في اليوم ليست كافية لكي تمدهم بالطاقة والقوة... لذا صديقاتي مهمتنا صعبة وخطيرة وتتطلَّب منا أن نكون على مستوى المسؤولية التي علينا أن نحملها على عاتقنا... فللعمل بصمت ودون لفت الأنظار إلى ما نقوم به أهمية قصوى، والمسألة بالنسبة لنا هي مسألة وجود. كذلك، وهو الأهمّ، علينا التقليل من حِصصنا الغذائية والاكتفاء بالقليل ومنع هدر أي قطعة خبز لأن شبابنا أحق منا بما نختزل من وجباتنا.

••••

رسالة من الفروع الأمنية

دخل السجَّان مناديًا:

– أمل زهر الدين... إفراج.

لم تساعدني قدماي على الوقوف ولم أصدِّق ما سمعت... إفراج... إفراج...

كرَّرتها صديقاتي في المهجع مرات عدة... وأنا في ذهول تام، إذ كان اليأس قد انتابني من مجيء هذا اليوم الذي لطالما حلمتُ به، وكان الأمل بعيد المنال؛ خاصةً بعد المكوث زمنًا طويلاً في أقبية الفروع الأمنية والتنقل فيما بينها.

أطلقتْ صديقاتي في الزنزانة صيحات الفرح، وبدأنَّ يقبِّلنني ويقبِّلن بعضهن... أخيرًا واحدة منا نجت، وستخرج مرة ثانية إلى فضاء الحرية، وسترى السماء والشمس والقمر، وستحس بالريح والمطر... واحدة منا كتب لها أن تعيش من جديد... واحدة منا ستخرج من القبر.

قالت رئيسة القاووش:

– يا ابنتي، عندما تصبحين في الخارج اصرخي بأعلى

صوتك؛ صرخة بألف صرخة؛ صرخة عنا جميعًا؛ صرخة تزلزل الأرض والسماء؛ صرخة تختصر آلامنا... تهتز لها الجبال، وتهرب من قوَّتها كل طيور العالم... صرخة تصل إلى كل الآذان، صرخة تنقلك إلى عالم حر بعيد عن عالمنا.

عادت بي ذاكرتي إلى اليوم الذي تمَّ فيه اعتقالي... يوم كنت بعد في الخامسة عشرة من عمري... وكان ذلك قبل سنة تقريبًا؛ سنة تعادل خمسين سنة... في ذلك اليوم دَاهَمَ الأمن منزلنا بحثًا عن أخي. عشرات الرجال مدججون بالسلاح كسروا باب المنزل بأرجلهم واقتحموه... تجمَّعنا خلف أبي الذي فرد يديه لحمايتنا؛ أمي وإخوتي الثلاثة وأنا أكبرهم.

حاول أبي تهدئة المقتحمين لمنزلنا... إلا أن سؤالهم كان واضحًا: أين ابنك؟ رد أبي بأنه لا يعرف، فلقد ترك الولد المنزل منذ بداية الأحداث ولا نعرف عنه أي شيء...

رد أحدهم: لا تعرف عنه أي شيء؟ إن كنت مصرًّا على رأيك فسترى...

وسحبه أحدهم وطرحه أرضًا وبدأ الضرب... أكثر من عشرة أشخاص تناوبوا على ضربه وركله بالأحذية وبأعقاب البنادق... ولم يتحمل أبي وفارق الحياة.

ثم التفت رجال الأمن إلى أمي التي كانت تحاول بكل

قوتها إغماض أعيننا، وصم آذاننا لكي لا نرى ما حلَّ بوالدي؛ فقد كانت واثقة بأنه لن ينجو... وهجم أحدهم عليها صارخًا: وأنتِ هل ستتكلمين أم أنك أيضًا تحتاجين إلى من ينعش ذاكرتك كزوجك... أم هل تودين اللحاق به؟

حلفت أمي بكل الأيْمان مؤكدة أنها لا تعرف مكان وجود أخي... ولم تستطع إقناعهم... فضُربت وأهينت... وعندما لم ينجحوا في الحصول منها على أية معلومة... أمر الضابط جنوده قائلاً:

– خذوا الفتاة وستبقى لدينا في فرع الأمن إلى أن يأتي أخوها لتسليم نفسه.

صرخت أمي متوسلة:

– أرجوك يا سيادة الضابط، ابنتي ما زالت طفلة لم تتجاوز الخامسة عشرة... أتوسل إليك... أليس لديك أخوات أو بنات؟ ارحمها.

ولكن لا حياة لمن تنادي... رجل تبلد إحساسه، وأصبح كالصخر... والعالم كله لا يعنيه بشيء.

سُحِبتُ من يدي وساقوني كالنعجة إلى سيارتهم، وأمي تحاول الوصول إليَّ وسط صرخات إخوتي... ولم تفلح... وصرخ الضابط في وجهها:

– أمامكِ فرصة يومان فقط... إن أتى ابنك وسلَّم نفسه

سنخلي سبيلها، وإن تأخر فلا أضمن لك مصير طفلتك... خاصة بما تملك من جمال... وأنتِ أدرى بما قد تتعرض له في الفروع الأمنية... أرجو أن أكون قد أوضحت لكِ أهمية ما أقول...

نهبت سيارات الأمن الطريق إلى أن وصلنا إلى أحد الأقبية... سحبوني إلى داخل الفرع ورموني في إحدى الزنزانات.

تحلَّقت النساء في الزنزانة حولي... وحاولن لمسي، لكنني كنت كالطائر المذعور، أصرخ وأنكمش على نفسي في إحدى زوايا الزنزانة... فتركنني إلى أن هدأت.

أحضرتْ إحداهن كأس ماء وأحضرت أخرى قطعة خبز... وسألنني عن مشكلتي، فروَيْتُ لهن قصة أخي وكيف أُخذتُ رهينة حتى قيام أخي بتسليم نفسه... في مدة أقصاها يومان.

تبادلت زميلاتي النظرات، نظرات كانت مليئة بالحزن... وقـدَّرتُ أنه حزن لما أصابني، ولم أكن أعلم أنه حزن لما سيصيبني.

انقضى اليوم الأول، وأشْرَفَ الثاني على الانتهاء... وقلبي تتسارع دقاته خوفًا مما سيأتي...

وقبل انتهاء المدة المحددة سلَّم أخي نفسه إلى الفرع الأمني... لقد ضحَّى بنفسه لإنقاذي... لكن هذا لم يحصل

مع الأسف... فبعد أن سلم نفسه، بدأ عذابه؛ إذ كان عليه الإقرار بكل ما فعله، وكذلك عليه إعطاء أسماء زملائه الذين شاركوا معه في المظاهرات وفي الكتابة على الجدران... ضُرب وأهين وكُهرب وقُلعت أظافره... ولم يأخذوا منه أية معلومة... تعب رجال الأمن، وعرضوا الأمر على الضابط المناوب... الذي بدوره نظر إلى ملف أخي... وبعد الاطِّلاع عليه قال لرجاله: هناك طريقة واحدة لجعله يتكلم... أحضروا أخته إلى غرفة التحقيق.

دُفعتُ إلى الغرفة المعتِمة... رأيت أخي مكبَّل اليدين، والدم يغمره... بكيت ولم أستطع إصدار أي صوت لشدة خوفي.

صاح أخي باكيًا:

– أختي لا... أتوسل إليكم... أختي لا.

قال الضابط:

– أفهم من هذا الكلام أنك مستعد الآن للاعتراف على زملائك... كل ما نريده أسماء المشاركين واسم من يحرِّككم.

قال أخي:

– لا أعرف أسماء المشاركين في المظاهرات، ولم يكن هناك من يحرِّكنا، كل ما في الأمر أننا انطلقنا بشكل عفوي ونزلنا إلى الشارع.

صرخ الضابط:

- بشكل عفوي يا ابن الحرام؟ بشكل عفوي يا كلب؟ ما هذا الذكاء؟ ما دمت تريد اللعب... فلنلعب... سأسألك عدة أسئلة، وكل سؤال لا تجيب عليه، نقوم بخلع قطعة من ملابس أختك.

صرخ أخي:

- يا رب أين عدالتك؟

أجاب الضابط:

نادِ على الرب لأرى إن كان سيساعدك!

وأضاف:

- السؤال الأول: من هو أو من هم الذين ينظمون مظاهراتكم؟

بكى أخي بكاءً أشبه بعويل، وقال:

- لا يوجد أحد... كنا نذهب بشكل عفوي.

قال الضابط:

- خطأ... جوابك خطأ...

والتفت إلى الحارس وأمره بنزع قميصي... وفعل...

- السؤال الثاني: من هم أصدقاؤك الذين شاركوا في المظاهرة الأخيرة؟

هزَّ أخي رأسه وقال:

– كان المتظاهرون من كل المدينة ولم أنتبه إن كان أحد أصدقائي ممن شاركوا في المظاهرة!

– للمرة الثانية أقول لك: الجواب خطأ... أيها الحارس قم بنزع بنطالها.

حاولتُ المقاومة، والنتيجة كانت بأن تم نزع بنطالي.

استمرَّ هذا العذاب لأيام عديدة، وتعرضتُ وأخي لكل أنواع وطُرق التعذيب التي لا يمكن لأحد تصورها... ولم ينطق أخي بكلمة، وأهينت كرامتي وكذلك كرامته... إلى أن لبَّى الرب نداءه وأخذ الروح التي أودعها إياه.

....

أعادني صوت رئيسة القاووش إلى الواقع وهي تقول:

– يا ابنتي عليك اليوم محاولة نسيان العذابات التي تعرضتِ لها... والتفكير بحياة مستقبلية بعيدًا عن هذا المكان، وحاولي بكل طاقتك عدم العودة إليه... ولكن في آنٍ واحد لا تنسي أن عليكِ حمل رسالتنا إلى العالم وهي أمانة أعطيناكِ إياها نحن السجينات اللواتي رأيتِهنَّ في الفروع الأمنية التي مررتِ عليها خلال فترة اعتقالك... وكوني لسان حالنا... ورسالتنا تقول:

نحن المعتقلات والأسيرات والمغيبات عن العالم والمتواجدات في الأفرع الأمنية نطلق صرختنا إليكم وإلى ضمائركم بالسؤال:

أين أنتم يا رجالَ البلد؟

أين أنتم ممَّا يُمارس ضدَّنا في المعتقلات، نُعْلِمُكم إن كنتم لا تعلمون بأننا هنا تحت الأرض وفي أماكن متعددة في البلد، نغتصب يوميًّا ولمرات عدة... فمنا من حملت... ومنا من ولدت... ومنا من ستلد... ومنا من ماتت تحت عذاب الاغتصاب...

أين أنتم مرة ثانية يا رجال العِزَّة؟

أين أنتم يا رجال الكرامة؟

كيف لكم أن تتمتعوا بحريتكم ونحن في مراكز التعذيب؟... كيف لكم أن تناموا وأعيننا لا تغمض؟... عذاباتنا وآلامنا المستمرة على مدار الساعة أنهت إحساسنا بتعاقب الليل والنهار...

أين أنتم يا رجال البلد الذين استخدمتم أجسادنا كساحات لانتقامكم؟

يُجبرنا جلادونا على إطلاق صرخات الاستغاثة بكم لتهبوا لنجدتنا... ويستهزئون لأنهم يعلمون- بل ومتأكدون- أنكم لن تستجيبوا لنا... ولن تلبوا النداء.

ويتابعون مسلسل الاغتصاب... ونُجبر على التعرِّي الكامل أمام هؤلاء القتلة... ونستعرض أمامهم كالسبايا... والكل يتحسس البضاعة ويلامس الأماكن الخاصة... ويُجبروننا على قول وفعل ما لا نريد... وكنا نقول ونفعل ما يريدون ومازلنا. لعلهم يرحموننا

ويخففون من عذاباتنا... ونطيعهم ومازلنا... لعل طاعتنا هذه تجعلنا من المحظيات لديهم... فنحظى ببعض الطعام... أو بساعات نوم... أو بقطعة صابون...

يستهزئون بكم وبرجولتكم وهم يعلمون أنكم لن تأتوا لنصرتنا... ولن يُطلق سراحُنا... وسنظل في هذا الظلام الذي شق الروح... وقتل كل ما هو إنساني فينا... وبقيت فقط الروح...

لذا نطلب منكم نحن السجينات الأحياء الأموات... أو كما يُسمَّى مَنْ هم في حالتنا بالشهداء الأحياء... أن تدمِّروا كل السجون والفروع الأمنية على رؤوسنا ورؤوس جلاَّدِينا... نعم دمِّروها بكل ما تملكون من أسلحة... وبكل ما لديكم من قوة... علَّكم بذلك تمحون عاركم وعارنا... نعم دمروا هذه الأمكنة علينا وعلى كل الموجودين معنا... وهذا أقل ما تفعلون.

أما ادعاؤكم بأنكم لا تملكون صواريخ لكي تدمروا هذه الفروع... فهو مدعاة للسخرية... فأنتم مثلا تملكونها لكي تتقاتلوا فيما بينكم... وتملكونها لكي تحققوا المكاسب على الأرض... وتملكونها لكي تدمروا ما بقي من إنسان وحيوان وحجر... وتملكونها لكي تعززوا مواقعكم... وتملكونها لكي تزيدوا من سطوتكم على مَنْ حولكم...!

وا أسفاه، فكل واحد منكم يحمل في داخله ديكتاتورًا صغيرًا... هذا الديكتاتور الذي ينتظر فرصةً ما... فقط فرصة لكي يطفو على السطح ويُدلي بدلوه.

ونسأل أخيرًا: ما معنى نضالكم الذي تدَّعونه؟... وما معنى جهادكم وأعراضنا تنتهك كل لحظة؟!

وربتتْ على كتفي قائلة: هذه هي رسالتنا، الله معك وليوفقك.

● ● ● ●

حُبّ في زمن الهزيمة

- تفضلوا يا سادة بالجلوس...

هكذا بدأ المسؤول الأمني عن مدينة «حمص» كلامه لضباط ومسؤولي الأمن فيها. وتابع:

- اليوم يا سادة نحن نمر بأصعب الأوقات التي تعصف بنا وتُهدِّد وجودنا، مَنْ كان منَّا يتوقع أن شعبًا دمث الأخلاق مطيعًا كشعب حمص؛ شعبًا مشهورًا بأنه صاحب النكتة والبسمة... يحمل هذه القدرة على العنف، ويسمِّي ما يقوم به ثورة؟!... مع الأسف أستطيع القول إننا قد بدأنا تقريبًا نفقد السيطرة على المدينة. كل هذا دفعني إلى الدعوة إلى هذا الاجتماع الطارئ لدرء عواقب هذا العصيان، ووضع خطة لإيقاف هذا التدهور الأمني، لا سيما وأن هذه الحركة بدأت تجذب شباب وشابات حمص وحتى شُيَّابها، لقد جعلوا من حمص رمزًا للثورة، وسمَّاها البعض منهم بعاصمتها؛ لذا وجب علينا التحرك بسرعة وبحذر لإعادة الهدوء إليها... وبأي ثمن... حتى لو اضطررنا للعمل على التفريق بين أبنائها. وأعتقد أن ذلك من السهولة بمكان،

حيث إن أبناء هذه المدينة ينتمون إلى طوائف متعددة مما سيجعل مهمتنا قابلة للنجاح... وأنا هنا بانتظار وجهات نظركم واقتراحاتكم... تفضلوا.

قال العميد أحمد:

- سيدي، لم نعُد نلحظ الخوف في أعين الناس بعد المظاهرات والأحداث الأخيرة، وقد تجرأ قادتهم على الإعلان عن أنفسهم، لذا أقترح أن نقوم بحملة مداهمة في كل المدينة واعتقال الناشطين فيها أصحاب ما يسمى بالحراك المدني.

هَزَّ المسؤول الأمني رأسه، وأعطى الكلمة للعميد زهير الذي قال:

- أعتقد أن مهمتنا الأولى هي منع وصول المتظاهرين إلى ساحة «الساعة» الرئيسية للمدينة، إذ إننا لا نريد لهم أن يقوموا بالاعتصام بها وتقليد الشباب المصري في ساحة «التحرير»، لذا أقترح أن نقوم بفرش الساحة بكاملها بالزجاج المكسور لمنع دخول المتظاهرين، ومَنْ تسول له نفسه الدخول نقوم بتصفيته.

ردَّد المسؤول الأمني:

- جميل، جميل، لكن لحد الآن لم أسمع أي اقتراح يصب فيما عرضته عليكم، ويبقى السؤال: كيف سنتمكن من زرع الفرقة بين أبناء المدينة؟

لحظات صمت أعقبها العميد مجيد بقوله:

- أنا لديَّ اقتراح؛ أقلُّ ما يُوصف به أنه خطير.. كلنا يا سادة نعلم أن شرف العائلة هو ما يشغل بال الناس بالدرجة الأولى، فإذا تم خطف عدد من بنات حمص وتم الاعتداء عليهن، فسنخلق بذلك بلبلة كبيرة، خاصة إن كانت هؤلاء النسوة ينتمين لطائفة واحدة وقمنا باتهام طائفة أخرى بهذا العمل... وفي نفس الوقت نرمي السلاح في أيديهم لكي يحمله بعضهم ضد البعض، ومن ثم نقوم نحن لاحقًا بالتدخل ونقضي على باقي المتمردين منهم... ما رأيكم؟

أعجب المسؤول الأمني بهذه الفكرة التي وصفها بالجهنمية. وقال:

- سنطبق كل ما تفضلتم به. والأهم الفكرة الأخيرة، والتي يجب أن تكون هدفنا الأساسي، ليس لأنها ستحقق مرادنا في بث روح الفرقة بين أبناء المدينة، ولكن أيضًا لأنها ستجعلهم يقعون في المطب ويتسلحون؛ مما سيبرر استخدامنا العنف ضدهم... ويتحقق ما قاله أحد قادة حراكهم الشعبي «عبد العزيز الخير» في تحذيره لهم بأن (الثورة إذا تسلحت، أسلمت... وإذا أسلمت تطيفت) ودعاهم أن لا ينجَرُّوا إلى هذا المنحدر.

دقَّت الساعة وبدأ الأمن في تنفيذ الخطة التي وضعها، والهدف الأول اعتراض وخطف باص يقوم بنقل فتيات من حارة سُنية إلى الجامعة... سيقت الفتيات إلى فرع أمني تحت الأرض؛ بشكل سري... وفوجئ عناصر الأمن فيه بزوار الفرع. ولم يجرؤ أحدهم على السؤال عن سبب وجود هؤلاء الفتيات.

حُشرت الفتيات المذعورات في زنزانة واحدة وكُنَّ خمسين فتاة... بعد ساعة بدأت طقوس التعذيب، وأولها كان هدفه كسر كرامتهن؛ بإصدار الأمر الأول بخلع ملابسهن بالكامل حتى الداخلية منها. وعندها اعترضت بعض الفتيات ورفضن الأمر... طالهن كل أنواع العنف من صفع وركل... إلخ. وأجبرن على الوقوف صفًّا واحدًا أمام الضباط والمجندين.

وقفت البنات بحياء، تضع كل منهن يديها على جزء من جسدها محاولة ستره وهن يبكين دون صوت.

أمر رئيس الفرع الأمني عناصر الفرع وضباطه بالمرور أمام السيدات والنظر إليهن كما كان يُفعل بالنساء في أسواق النخاسة لمعاينتهن كالبضائع... وعنَّفَ كلَّ عنصر حاول التنصل أو التهرب من مطالعة وجوههن.

كان «حسن» واحدًا من هؤلاء العناصر، شابًّا في

العشرينات من عمره ينتمي إلى الطائفة العلوية... لم يتمكن من الوقوف مستقيمًا لشدة صدمته ولرجفته من هول المشهد، فاجأه صوت رئيس الفرع صارخًا وداعيًا إياهم للمرور ببطء أمام كل امرأة واقفة في الطابور وإلى النظر إليها.

بدأ حسن بالسير وهو مغمض العينين محاولاً أن يقي هؤلاء النساء الحرج؛ إذ رأى فيهن أمه وأخواته... انتبه رئيس الفرع إليه فعنَّفه قائلا:

- افتح عينيك يا حسن... وإياك أن تكررها وإلا فستكون عقوبتك شديدة.

فتح حسن عينيه بعد تردد... لتقعا على كتلة من نور... فتاة تشع بياضًا؛ بياضًا وهجُه لا يسعه المكان المحصور فيه، شعر فاحم السواد طويل ينسدل على كوزي الرمان كأنما ليحميهما، وذراعان منسكبتان على طرفي الجسد، ويدان ناعمتان، تحليهما أصابع طويلة كأصابع الفنانين، تحاول الفتاة بهما إخفاء عورتها. أما الساقان فكانتا ملفوفتين، والقدمان كزوجي الحمام تنقر بهما الأرض لتقيها بردها.

تسمَّر حسن في أرضه وهو يتأمل ما خلقه الرب. قائلاً في نفسه: أيُمكن أن يكون هناك جمال في العالم كالذي أمامه.

رفعت الفتاة وجهها ونظرت إليه بخوف وحياء. فرأى عينيها السوداوين الرائعتين كحبات الزيتون الأسود. نظرتُها

شابَهَا ما يُشبه الرجاء بأن يكف النظر عنها... فخفض عينيه خجلا.

اختصرت هذه الفتاة بالنسبة لحسن كل نساء العالم... وصارت أقرب له من السماء... هام بها وهامت به... وبات قدَرَها كما باتت هي قدرَه... وعرش الحب على جسدها وغطاها بالياسمين والفل... حُب من النظرة الأولى اجتاحهما كالطوفان، وحلَّقا في عالم بعيد عن محيطهما.

همَسَ لها حين عادت إلى زنزانتها قائلاً:

– لا تخافي... فأنا لن أتركك... وسنهرب معًا... إلى بلاد الله الواسعة... فقط تحمَّلي قليلاً.

وتقرر نقل السجينات إلى فرع آخر لا يعرف عن موقعه إلا عددٌ قليل من الأشخاص. هنا جاءت الفرصة التي انتظرها حسن، وقام بترتيب عملية الهرب عبر قيامه برشوة الحراس وسائق الشاحنة.

ركبت النساء الشاحنة الخاصة بالسجن وبينهن «قمر» حبيبة حسن، وفي منتصف الطريق توقفت الشاحنة وفتح بابها، ونادى حسن على قمر التي قفزت منها بسرعة مصحوبة بدعوات النساء... واختفيا عن الأنظار.

....

ظهَرَا لاحقًا في تركيا. وأذاعا أخبارهما... فهناك تزوج منها... وخطّا معًا قصة عشق تجاوزت كل الفوارق والحواجز.

••••



المؤلفة في سطور

- كاتبة سورية وصحافية وناشطة اجتماعية ونسوية.
- حاصلة على ليسانس في اللغة الفرنسية، من كلية الآداب - جامعة دمشق في العام ١٩٨٤.
- تعمل في منظمة الأمم المتحدة منذ ١٩٨٧ وحتى الآن (الأونروا ومن ثم مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة).
- تعمل في منظمة الصليب الأحمر لمحو الأمية للشباب اللاجئين السوريين في فيينا / النمسا.
- عضو مؤسس ورئيسة رابطة المرأة العربية، فيينا / النمسا.
- مديرة ومدرِّسة في مدرسة اللغة العربية بالرابطة.
- عضو مؤسس ورئيسة مشروع «بلسم» الخاص باللاجئين السوريين.
- عضو مؤسس لرابطة موظفي الأمم المتحدة العرب، فيينا / النمسا.
- عضو في حركة السلام من أجل سوريا.
- ساهمت في العمل الاجتماعي في دمشق / سورية عبر إقامة صفوف لمحو الأمية لأربع سنوات، إضافة لعملها في صفوف المرأة.
- تحاضر في العديد من المنابر النمساوية (مدارس / كنائس / منظمات أهلية / ... الخ.) عن أوضاع اللاجئين السوريين، وعن الموسيقى كمشروع لبناء هوية جامعة للاجئين السوريين.

• الجوائز:

- ٢٠١٥: حاصلة على جائزة الأمين العام للأمم المتحدة السيد بان كي مون للعمل الطوعي عن مشروع بلسم

- ٢٠١٦: حاصلة على جائزة نساء الأمم المتحدة في فيينا النمسا عن مشروع بلسم

- ٢٠١٧: حاصلة على جائزة نساء الأمم المتحدة في نيويورك أمريكا عن مشروع بلسم

- إضافة لعدة جوائز قدمت لها من عدة منظمات غير حكومية في فيينا /النمسا.

• الإصدارات:

- المنطقة الرمادية: مجموعة قصصية.

الطبعة الأولى: الحضارة للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٤

الطبعة الثانية: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢٢.

الطبعة الألمانية: دار قلم النمساوية، فيينا ٢٠١٥.

- الهروب إلى الأمام: مجموعة قصصية

الطبعة الأولى: الحضارة للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٥

الطبعة الثانية: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٢٢.

الطبعة الإنجليزية: يناير ٢٠٢٣

• البريد الإلكتروني: mtkiriaky@gmail.com

المحتوى



شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net